

مركز الكتاب للنشر



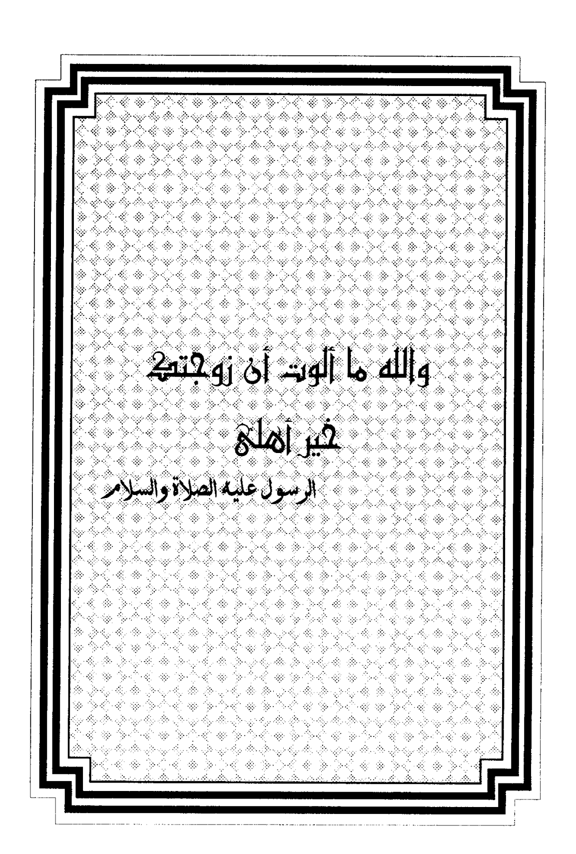
مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
ت: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠
مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

« عليكم بسنتى .. وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى .. عضوا عليها بالنواجز »

حديث شريف


والله ما ألوت أن زوجتك
خير أهلي
الرسول عليه الصلاة والسلام



الإمـام علىّ بن أبى طالب شـخـصـية بالغـة الثـراء . . بالغـة الحكمة . . فـهو صحـابى جليل . . وأحد المبـشرين بالجنة . . وله مواقفه التى لا تنسى فى تاريخ الإسلام . . وما أكثر الأدوار التى قام بها فى سبـيل دينه . . فى حياة الرسول وحيـاة الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه إلى الخلافة.

وقد كان الإمام بجـانب شخصيته الآسرة متعـدد الجوانب؛ فهو مقاتل بارع فى ميادين الجهاد . .

وهو خطيب لا يشق له غبار . .

وهو صاحب بلاغة وفصاحة بلغ فيها القمة . . وهو أيضاً التقى الورع الذى يرعى حقوق اللَّه وحقوق عباد اللَّه.

كان منتـهى آماله أن تتحـد كلمة الأمة . . ويشـيع فيهـا العدل والشـرف وكل مـبـادئ الإسـلام، ومـا كـان يريد أن يرى الأمـة الإسلامية قد تمزق شملها بالصراعات على الحكم . . فقد كان يرى أنه أحق الناس بالخـلافة، وعلى الجـميع أن يطيـعوه حـتى يواصل الإسلام زحـفه لنشـر النور فى كل مكان، ولكن الظروف حكمت عليه أن يدخل فى حرب أهلية مع معاوية بن أبى سفيان الذى رفض

قرار العزل الذى أصدره الإمام بحجـة المطالبة بدم عثمان رضى اللَّه عنـه.

وما أكثر همومه وهو يواجـه عائشة، رضى اللَّه عنها يوم حاربته مع طلحة والزبير فى معركة الجمل . . كان يشق على الإمام أن يرى تمزقاً فى صفـوف المسلمين . . ولكن ما حيلتـه أمام الأحداث التى فرضت عليـه فرضاً . . فمـا أكثر الذين لم ينسـوا مواقفه وجـهاده عندما قتل السفهاء الذين حاربوا الإسلام أيام الرسول . . !

وما أكثر الحاسدين له ولدوره ومواقفه من المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون.

وما أكـثر الذين حاربوه حـباً فى الدنيا . . وخـوفاً من رجل لا يعطى من أموال المسلمين إلا من لهم الحق فى هذه الأموال . . ولن يولى إنساناً على رقاب المسلمين إلا إذا كان تقـياً ورعاً حريصاً على المسلمين.

وكان الإمام عظيماً حتى فى عـداوته، فعندما تأهب لقتال جيش عائشة وطلحة والزبير قال لأفراد جيشه:

- يا أيها الناس . . إذا هزمتمـوهم فلا تجهزوا على جريح، ولا تتبـعوا مـولياً، ولا تطلبـوا مدبراً، ولا تكـشفوا عـورة، ولا تمثلوا بقتيل، ولا تهتكوا ستراً، ولا تفرقوا شيئاً من أموالهم إلا ما تجدونه فى عسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أمة، وما سوى ذلك فهو

ميراث لورثتهم، ومن ألقى سلاحـه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن . .

ويبلغ من نبل أخلاقـه أنه يعطى لكـل ذى حقـه، حـتى أعداءه الذين جـاءوا لمحاربتـه، فقـد حاول أن يـثنى الزبير بن العـوام عن الحرب ولم يستطع، ولكن الزبيـر بعد محادثته للإمام قـبيل القتال، أيقن أحقـية الإمـام، وقرر ألا يخـوض الحرب ضده ، ولكـن قتله رجل اسمه ابن جرموز غدراً ، ولما علم بذلك الإمام قال:

- بشروا قاتل ابن صفية بالنار .

وعندما أمسك بسيف الزبير تذكر مواقعه وجهاده مع أعظم رسل اللَّه وامتـلأت عيناه بالدموع وقال: سـيف طالما كشف الكروب عن وجه رسول اللَّه . . وبكى وأبكى من حوله ! .

وعندما هزم جيش عائشة فى معركة الجمل أرسل محمد بن أبى بكر وهو أخوها ليطمـئن عليها، وذهب محمـد بن أبى بكر يسألها هل أصابها شئ.

قالت : ما أصابنى إلا سهم لم يضرنى.

قال لها: أما سمعت قول الرسول عليه الصلاة والسلام«علىٌ مع الحق والحق مع علىٌ ثم خرجت تقاتلينه؟» .

قالت : فليغفر اللَّه لى.

وقال لها الإمام :

- يا أم المؤمنين . . أرسول اللَّه أمرك بهذا ؟ ألم يأمرك بأنى تقرى فى بيتك، واللَّه ما أنصفك الذين أخرجوك، إذا صانوا عقائلهم وأبرزوك.

وقال لها أيضاً :

- كيف أنت الآن يا أم المؤمنين ؟

- بخير.

- يغفر اللَّه لك .

- ولك .

أخلاق الإمام هى أخلاق الفرسان المتقين الورعين . . لم يشمت فى عدو . . ولا تجبر على من غدر به . . إنه و . . ما أكثر مواقفه النبيلة مع الأعداء . . وما أكثر حرصه على العدل وانتشار قيم الإسلام وفضائله.

أما عن حِكَمه فستظل نور هداية للناس ما بقى التاريخ . . سألوه: كم المَسافَة بين المشرق والمغرب. .

قال: مسيرة يوم للشمس .

وهو القائل :

- الفرص تمر مر السحاب . . فانتهزوا فرص الخير. .

- الغالبّ بالشر مغلوب . .

- ثلاثة إن تظلمهم ظلموك: عبدك. وزوجتك، وابنك، لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم.

وقوله: من أتاه اللّه مالاً فليصل به القرابة، وليحسن منه الضيافة، وليفك به الأسير والعانى، وليعط منه الفقير والغارم، وليصبر نفسه على النوائب ابتغاء الثواب، فإن فوزا بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا، ودرك فضائل الآخرة.

وهو القائل أيضاً:

- الفقر يخرس الفَطين عن حجته . . . والمُقِلّ غريب فى بلدته.

- الغنى فى الغربة وطن، والفقر فى الوطن غربة.

وهو القائل أيضاً:

- لكل امرئ فى ماله شريكان: الوارث والحوادث.

وما أكثر ما يمكن أن تطالعنا من حكم الإمام ومآثره ونحن نمضى فى مسيرة حياته . . تلك الحياة الخصبة الثرية التى عاشها الإمام مجاهداً بكل ما يملك فى سبيل ما يؤمن به . . حتى انتهت حياته بمؤامرة دنيئة . . ولكن سيظل الإمام علىّ رضى الله عنه رمزاً لكل ما هو نبيل وجليل . . أليس هو من قال فيه الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام: «من اتخذ علياً إماماً لدينه . . فقد استمسك بالعروة الوسطى».

* * *

عليّ بن أبى طالب

لنبدأ رحلتنا مع على بن أبى طالب عند إسلامه . .

فقد أسلم صغيراً . .

كان ما يزال فى السابعة من عمره . . وكان يعيش مع ابن عمه محمد بن عبداللّه وزوجته خديجة بنت خويلد . . فقد رأى ابن عمه الأمين أن عمه أبا طالب كثير العيال . . وأنه رعاه وكفله صغيراً، فأراد أن يخفف عن عمه من ناحية ، ويرد الدين الذى عليه لعمه من ناحية أخرى . . فأخذ (علياً) الصغير معه.

وفى هذا البيت السعيد . . بيت محمد وخديجة . . وجد علىٌّ نفسه يعيش مع إنسان ينادونه بالأمين . . ومع سيدة عظيمة من أشراف مكة . . فأخذت تتسرب إلى نفسه أخلاقيات محمد وصفاته. إلى أن استرعى انتباهه ذات يوم النبى الكريم وهو يؤدى الصلاة مع السيدة خديجة . . هنا تساءل الصبى فيما بينه وبين نفسه . . عن هذه الظاهرة التى يراها . . فلم ير مثل ذلك من قبل . . ويومها سأل النبى عن هذه الصلاة . . وعرف منه أنه نبى أرسله اللّه لهداية العالمين . . وأن هذه الصلاة للّه . . خالق كل شئ . . الواحد القهار . . الذى لا شريك له . . له الخلق وله الأمر . . يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير . .

يومها فكر (علىٌّ) الصغير فيما سمع من ابن عمه العظيم.

هل يؤمن بمحمد؟

أم يسأل والده ويستـأذنه فى أن يدخل فى دين ابن أخيه ؟ ولكن عرف أن الأمـر ما زال سراً. . وأنه لم يؤمـن به من الرجال إلا أبو بكر . . وزيد بن حارثة مولى الرسول الكريم . . وزوجـته خديجة بنت خويلد.

وفكر الطفل الصغير كثـيراً . . وأحس بالنور يتغلغل فى أعماق نفسه . . وشعر بجمال الإيمان ينساب فى كيانه كله . . فما كاد يرى الرسول الكريم حتى يسـرع إليه معلناً إسلامـه . . ويبتسم له النبى الكريم . . وعندمـا يسأله النبى عليـه الصلاة والـسلام أن يسـتأذن والده. . يكون رد علىٍّ:

– يا رسـول اللَّه مـا كنت لأسـمـع لأبى طالب أو أسـاوره فى دينى. . فـقـد خلقنى اللَّه ولم يـشاوره فى خـلقى . . إنى هديت يارسول اللَّه بك إلى ربى فلأعبدنه ابتغاء وجهه.

وتمضى الأيام . . والدعوة مـا زالت سرية . . وعلىٌّ يشـعر فى أعماق نفسه بأنه قد عرف طريقه إلى اللَّه . . وأن محمداً صادق فى دعوته . . وأصبح من أمنياته أن يؤمن والده بالدعوة التى ينادى بها محمد الأمين . . وأن يكون له ناصـراً . . وكان من أمنياته أيضاً أن يؤمن به قومه وعشيرته الأقربين . . ويعرض على والده ذات يوم أن يؤمن بما جاء به مـحمد . . ولكن الشيخ يسـتمع إلى ابنه . . ثم لا

يمنعه من اعتناق الإسلام . . ولكنه هو نفسه لا يستجيب لهذا الإيمان . . ويقف عليّ حائراً أمام تردد والده.

وتمضى الأيام . . وهو يشعر بسعادة غامر تملأ نفسه أملاً وإيماناً وحياة . . وجاء وحى السماء يدعو محمد إلى أن يدعو إلى الدين ذوى قرباه . .

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء : ٢١٤، ٢١٥]

ويدعو النبى الكريم أقاربه من بنى هاشم وبنى عبدالمطلب. وقدم لهم الرسول الكريم طعاماً . . وأثناء الطعام أخذ يشرح لهم رسالة الإسلام . . وبينما لاذ أبو طالب بالصمت وهو يستمع إلى ابن أخيه وهو يتحدث بأسلوب ممتع . . ولغة فصيحة . . وبيان معجز . . زمجر عمه أبو لهب بكلمات صاخبة صادرة عن قلب مملوء بالحقد والموجدة على محمد الأمين :

- أتأتينا يا بن عبدالله بقالة من لدنك . . إنى هى إلا رئى تزعم أن ربك أدلاها إليك من السماء ثم تحسب أنا مصدقوك. !!.

ولكن بكل الهدوء والجلال يرد محمد عليه الصلاة والسلام:

« ما أعلم إنسان فى العرب أتى قومه بأفضل مما جئتكم به ». . وأرغى عبدالعزى بن عبدالمطلب (أبو لهب) . . وأزبد . . وانسحب ساخراً من محمد ودعوة محمد . . وصمت النبى . . ولاذ

بالصمت الجليل . . وران الحـزن على نفسه . . وهو يشـاهد أقرب الناس إليـه لا يأخـذون دعـوته مـأخـذ الجد . . فـالعـبـاس . . والحمزة . . وأبو طالب . . جميعهم لم يخرجوا على حدود الأدب مع محمد كما فعل أبو لهب . . إلا أنهم لم يؤمنوا بدعوته . . ولم يشجعوه عليها . . شاهد علىٌّ بن أبى طالب ذلك وشعر بالأسى . .

ترى . . لماذا لـم يسلم والـده ؟ . . وهو الراجح العـــقل . . صاحب المكانة الرفيعة بين قومه! .

وتمضى خطى الزمن قليـلاً . . كـانت الدعوة قـد اتسع نطاقهـا بعض الشئ . . فقد أسلم أبو بكر الصديق . . وتابع أبا بكر عثمان ابن عفان . . وعبدالرحمن بن عـوف . . وطلحة بن عبيد اللَّه . . وسعد بن أبى وقاص . . والزبير بن العوام . . وبعد ذلك أسلم أبو عـبيـدة بن الجـراح . . و . . وأخـذت الدعـوة طريقهـا سـراً إلى القلوب . . فيؤمن بها من يؤمن ويحذر منها بدافع التقاليد والعادات المتـهرئة من يحـذر . . ويقرر الرسـول أن يبلغ أمـر اللَّه إلى الناس علانية . . فيصعد إلى جبل الصـفا . . ويدعو إليه قبائل قريش . . ويأتى من يأتى . . وتدوى كلمات النبى الأمين وهو يخطب الناس:

« هل عرفتم عنى كذباً أو بهتاناً؟!» .

ويردون بالنفى .

فيقول لهم الرسول :

« لو قلت لكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟».

قالوا : نعم .

قال: « إذن فاسمعوا جميعاً . . فإنى نذير لكم يا بنى عبدالمطلب، يا بنى مخزوم، يا بنى عبدمناف، يا بنى زهرة ، يا بنى تميم، يا بنى أسد . . لقد أمرنى اللَّه ربى وربكم أن أنذركم، فأنتم عشيرتى الأقربون ، وأنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الأخرة نصيباً . . إلا أن تشهدوا معى أن لا إله إلا اللَّه».

ولكن هذا النداء العظيم . . الذى كان بداية لحياة جديدة . . وحضارة جديدة . . ونظرة جديدة للحياة وما وراء الحياة . . هذا النداء العظيم سرعان ما قوبل بالاستهجان والرفض من أناس عاشوا تعشش فى نفوسهم تقاليد الجاهلية وأوزارها . فما رضوا بدلاً عن جهالات الآباء والأجداد . . لقد أذلتهم تقاليد بالية عاشوا لها وبها . . ومعتقدات سخيفة لا معنى لها . . وطاعة عمياء لآلهة عمياء . .

ووسط ما ساد المجتمعين من صخب صاح أبو لهب:

- ألهذا دعوتنا ويلك! .

أراد أبو لهب أن يهون من هذه الدعوة فى أول أمرها . . وما كان يدرى يومها أن هذه الدعوة ستقوض عروشاً . . وإمبراطوريات

بالغة القـوة والجبروت . . وأنهـا بداية انهيـار مجتـمع معطر بأريج الروح . . وأن تعاليم هذا الدين الجـديد سوف تخلق مجتـمعاً من أعظم المجتمعات التى عـرفها التاريخ كله . . وأن هذه الدعوة بداية لصرعـات طويلة مريرة . . سوف تسيـر على أرض مخضبـة بدماء الشهداء . . وأن الأمر ليس بتلك السهولة التى تصورها هذا المغرور أبو لهب الذى كان يأتمر بأمر زوجتـه بنت أبى سفيان . . ونسى هذا المجـهول الذى ناصب دعـوة الإسـلام العداء . . أنه عندمـا أرغم ولديه عتبـة وعتيبة أن يطلقـا بنتى محمد (أم كلثـوم ورقية) أن اللَّه سوف يزوجهـما من هما خير من أبنيـه . . وأن الدعوة سوف تشق طريقها رضى أم أبى . . رضيت مكـة كلها أو أبت . . فاللَّه سوف يظهر دينه ولو كره الكافرون.

وكان علىٌّ بن أبـى طالب يشاهد كل هذا . . ويعـجب من أبيه وذوى قرابته وتنتـابه الدهشة ويتساءل فيمـا بينه وبين نفسه . . لماذا كل هذا العداء ؟ لرجل يدعوهم للهداية؟

لماذا لم يستمعوا له ويناقـشوه ؟ لماذا يصمون آذانهم . . ويغلقون عقـولهم عن فهم ما جـاء به محمـد . . إنه لم يدعوهم إلا لما فـيه مصلحـتهم . . إنه يرفعهم مـن رق العبودية لأصنام صمـاء بكماء وعمياء إلى الاعتقاد بخالق كل شئ . . القادر على كل شئ . . إنه ينتشلهم من أوهام الخرافة . . وتسـلط الجاهلية . . وكم كان الطفل الصغير المبكر الذكاء يتمنى أن يكون شاباً . . صلب العود . . حتى يستطيع أن ينصر ابن عمه.

وتمضى الأيام . . ومع كل يوم يرى صوراً لما يحدث فى مجتمع مكة . . الأغنياء يتسلطون على الفقراء . . ويسومون من يؤمن منهم سوء العذاب .

ويرى أيضاً كيف يقاوم المؤمنون كل أنواع العذاب أملاً فى اللَّه ويحزنه ما يرى من تجبر سادة مكة . . وطغيانهم . . وإن كان يعجب من شجاعة ابن عمه العظيم وشخصيته الآسرة . . وجلده وقدرته على أن يؤلف من حوله القلوب . . ببساطته الرائعة . . وتواضعه الكبير . . ورجاحة عقله . . وقدرته على الإقناع . . ولكن الدعوة مع ذلك تسير ببطء . . فالناس على دين آبائهم عاكفون . . واشتد العذاب بالمؤمنين حتى أمر الرسول بعض الصحابة بالهجرة إلى الحبشة . . وزاد صلف مكة وعبثها واستهتارها فإذا بهم يقاطعون بنى هاشم . . لا زواج . . لا تجارة . . ولا تعامل معهم . . ويعقدون على ذلك معاهدة . . ويتحمل الرسول وآله كل هذه المصاعب . . إلى أن يثور بعض أبناء مكة عليها . . إنها وثيقة ضد الرحم . . وصلة القربى . . وثيقة أملتها الغيرة العمياء . . والحسد لنبى الإسلام . . والغيرة فى أن تصبح النبوة من بنى هاشم . . من أجل هذا حارب أبو الحكم بن هشام (أبو جهل) الدعوة أشد المحاربة . . وهو لم يوار حقده وحسده . . عندما أعلنها صراحة :

- تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف . . اطعموا فأطعمنا ،

وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟ واللَّه لا نؤمن أبداً ولا نصدقه . .

فالمسألة هنا واضحة أشد ما يكون الوضوح . . لقد حجب رؤية البعض عن الإيمان بالحقيقة التى نادى بها النبى الكريم . . حقدهم على أن يخرج من بنى هاشم نبى . . فيرتفع اسمهم فى الآفاق.

جاهلية بغيضة أصابت عقولهم بالإغماء . . فلم يعودوا يميزون بين الحق والباطل . . بين الصواب والخطأ.

ويرى علىٌّ الرسول الكريم فى صبره وتجلده وتحمله المشاق . . إنه يرحل إلى الطائف بعد وفاة عمه أبى طالب، وزوجته خديجة . . والأحزان تملأ قلبه برحيلها . . عله يجد فى الطائف بعض الأنصار . . ولكن يقابل هناك من سادة الطائف بكل المهانة حتى أنهم أخذوا يسلطون عليه السفهاء ليرموه بالحجارة . . يومها كان هناك موقف عظيم من مواقف الرسول الكريم يوم جلس محتمياً وراء بساتين الطائف . . ثم رفع بصره إلى السماء . . ودعاء اللَّه بهذا الدعاء العظيم :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى . . وقلة حيلتى . . وهوانى على الناس . . يا أرحم الراحمين . . أنت رب المستضعفين وأنت ربى . . إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى . . أم إلى عدو ملكته أمرى . . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك

أوسع لى . . أعـوذ بنور وجـهك الذى أشـرقت له الظلمـات . . وصلح عليه أمر الدنيا والآخـرة من أن تنزل بى غضبك . . أو يحل على سـخطك . . لك العتـبى حـتى ترضى ولا حول ولا قـوة إلا بك».

لقـد كان الرسول الـكريم يأمل أن يؤمن به سادة ثقـيف ولكنهم سـخـروا منه ولم يدخل الإيمان قلوبهم . . لم يؤمن سـوى خـادم اسمه عداس . . عندما قـدم له قطفاً من العنب، وشاهده يتلو بسم اللّه الرحمن الرحيم . . فيدور بينه وبين النبى نقاش . . يؤمن بعده أنه نبى . . ويعود النبى من الطائف فى جوار المطعم بن عدى.

وكان لابد للدعوة الإسلامية أن تأخـذ مساراً حاسماً . . وكانت هجرة النبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة بعـد بيعة العقبة الأولى والثـانيـة . وكان علـى بن أبى طالب يقـوم بدور هام فى مكة . . عندما طلب منه الـرسول الكريم أن ينام فى فراشـه ليلة هجرته . . وأن يظل بمكة ليـرد ودائع الناس عند النبى الكريم إليـهم . . وكان هذا الموقف من على يدل على شجـاعته ورباطة جأشـه . . فقد نام فى فراش الرسول . . والقوم يأتمرون به ليقتلوه.

وأدى الرجل الأمانة . . وكان عليـه أن يرحل إلى يثرب . . فما عادت مكة تروقه بعد أن غادرها أحب الناس إلى قلبه . . محمد بن عبـداللّه وصحبه الكرام . . ولم يعـد يستهـويه أن يظل مع أقاربه. من بنى هاشم الذيـن ظلوا على كـفرهم . . إن أشـواقـه هناك فى

يثرب . . وقرر الهجرة وحيداً . . سائرا على الأقدام . . أربعة عشر يوماً يسير وحيداً بين صمت الصحراء . . وخواء الكون . . تدفعه أشواقه إلى حيث يوجد رسول اللّٰه . . لا يهم المخاطر إلى أن يصل إلى مدينة رسول اللّٰه.

كان الرسول قد سبقه إلى يثرب . . واستقبله أهلها أعظم ما يكون الاستقبال وأروعه . . وعندما كان النبى عليه الصلاة والسلام على مشارف المدينة . . عند قباء . . بنى النبى عليه الصلاة والسلام مسجد قباء . . وكان وصوله فى يوم الاثنين ٨ من ربيع الأول . . وفى هذا المكان شعر النبى كما شعر المسلمون بالأمن والأمان . . فلم يعد يعوق انطلاق الإسلام أحقاد مكة وأهواؤها . . ولم يعد السفهاء يتسلطون على النبى والمسلمين . . إن الإسلام هنا سوف يأخذ مساراً جديداً . . سينطلق بكل قواه يهدم الحواجز . . ويحطم القيود . . ويبنى أول دولة وأعظم دولة عرفها التاريخ فى كل العصور.

إن النبى يأمر أن يقام مسجد قباء . . ويظل هناك ثلاثة أيام حتى يتم هذا المسجد البسيط المتواضع . . ويصلى فيه المسلمون وهم يشعرون بجو الحرية . . إنه مسجد أسس على التقوى كما يقول القرآن الكريم.

﴿..... لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]

ولن ينسى التاريخ هذا الموكب المبارك الرائع . . والرسول يركب ناقته وخلفه الصديق . . وأهل يثرب يستقبلونه بالأغانى . . وكل واحد منتهى أمله أن يحقق الرسول رغبته فى النزول فى داره . . ولكن الرسول الكريم يقول لهم:

« خلو سبيلها فإنها مأمورة » . .

وعند بيت أبى أيوب الأنصارى بركت الناقة . . وتهلل وجه الرجل وهو يدعو الرسول إلى الدخول . . ويقبل الرسول الكريم الدعوة . . وهو يدعو ربه . .

﴿ . . رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨]

وفى هذا المنزل ظل النبى سبعة أشهر . . وعندما أقام مسجده بالمدينة انتقل إلى دار بناها بجواره.

ما أعظم الحياة فى ظل هذا المجتمع الجديد.

وما أعظم مبادئ الإسلام التى استطاعت أن تجعل المسلم أخا للمسلم . . فقد آخى النبى بين المهاجرين والأنصار . . والصراعات الموروثة بين الأوس والخزرج قد اختفت وكان شرفاً عظيماً لعلىّ بن أبى طالب أن يؤاخى الرسول بينه وبينه.

وكان المجتمع الجديد المعطر بجمال الروح . . وجلال المبادئ العظيمة والذى استطاع أن يقضى على رواسب السنين الطويلة من الصراعات بين قبيلتى الأوس والخزرج . . كان يضع النواة العظيمة

لحكومة مـثاليـة رائعة على رأسهـا النبى عليه الصـلاة والسلام . . وكانت البداية تخطيط لمسار الدعوة .

فمن المعروف . . ومن البديهى أن الصراع لن ينتهى بين المسلمين وبين أهل الشرك إلا بعد معارك طويلة ضارية ينتصر فيها الحق على الباطل . .

وأن هناك صراعاً سوف ينشب أيضاً مع اليهود فى المدينة .

كما أن عالمية الإســلام سوف تحتم على النبى إرسال رسائله إلى ملوك العالم يدعوهم فيها إلى الإسلام .

فالأمر إذن لم يكن سهلاً ولا هيناً .

ومشــاكل المسلمين لم تنته بالهجـرة من مكة إلى المدينة بل بدأت الأمور تأخذ شكلاً حاسماً . . وبدأ الإســلام يتحرك بسرعة مذهلة ليوسع دائرة نوره المبهر فى كل الاتجاهات .

وسوف يظل يــوم دخول النبى إلى المدينة يومــاً حاســماً من أيام التــاريخ . . إنه يوم الســادس عشــر من ربيع الأول من عــام ٦٢٢ ميلادية .

ومضت الأيام فى مــدينة رسول ﷺ . . والناس ينعمــون براحة الإيمان . . وجــلال التقــوى . . ونور الإســلام يفــتح القلوب إلى عوالم رحيبة .

وحكومة الإسلام الجديدة أخذت تدعـم كيانها . . وقد أذن اللَّه للمؤمنين بالجهاد . .

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]

وفى العام الثـانى من الهجـرة . . كانت غـزوة بدر الكبرى . . وهى أول المعارك العظيـمة فى الإسـلام . . حيث انتصـر المسلمون انتصاراً سـاحقاً على مشركى مكة . . وفى هذه المعـركة الخالدة لن ينسـى التـاريـخ مـواقف عـلىّ بن أبى طالب . . والحـمـزة بن عبدالمطلب . . وأبطال المسلمين . .

وكم كان المشهد رائعاً وجليلاً عـندما خرج من صفوف المشركين عتبه بن ربيـعة وأخوة شيبة وابنه الوليـد يريدون المبارزة . . وخرج من صفـوف المسلمين علىّ بن أبى طالب، وحمزة بن عـبدالمطلب، وعـبيـدة بن الحارث . . واسـتطاع الثـلاثة أن يقتلوا أعـداءهم . . وبدأت المعركة . . وانتهت بانتصار المسلمين الساحق . .

ورجع كفار مكة منكسى الرؤوس . . تهزهم من الأعماق فجيعه الانكسار . . وذل الهزيمة .

وفى هذا العام تقدم الإمـام علىّ بن أبى طالب إلى النبى العظيم طالباً الزواج من ابنته فاطمة الزهراء .

كان علـىّ بن أبى طالب فى الواحدة والعـشرين من عـمره . .

أسـمـر الوجـه . . أقـرب إلى القـصـر منـه إلى الطول . . كث اللحيـة . . كثير شـعر الصدر . . ضخم عـضلة الذراع والساق . . حسن الوجه . . يملؤه الإيمان جلالا وسكينة . . وكانت فاطمة بنت الرسول فى الخـامسة عـشرة من عمـرها نحيلة العـود . . ضعيـفة البنية .

تقـدم علىّ إلى الـرسـول يطـلب يد الزهراء . . ووافق الـنبى الكريم . . ودعا للزوجين الصالحين :

« اللهم بارك فـيهـمـا . . وبارك عليهـمـا . . وبارك لهمـا فى نسلهما » . .

وقال النبى الكريم للزهراء :

« واللَّه ما ألوت إن زوجتك خير أهلى » .

وتعيش فاطمة مع زوجها حياة متـقشفة زاهدة . . ولكنها سعيدة مع ذلك بزوجها وخاصة بعد أن انتقلت إلى جوار والدها العظيم . . وتمضى الأيام ويسمع النبى خبراً لـم يسر له . . وتسمع بذلك أيضاً فاطمة فتطوى نفسها الطاهرة على حزن عميق . . وقد سمع أن بنى هاشم بن المغيرة يريدون أن يزوجوا ابنتهم من علىّ بن أبى طالب . . وغضب الرسول . . ومن فوق المنبر وأمام الجميع قال :

« إن بنى هاشم بن المغيـرة استأذنونى أن ينكحـوا ابنتهم علىّ بن أبى طالب . . فـلا آذن . . ثم لا آذن . . إلا أن يريـد علىّ بن أبى

طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم . . فإنهـا بضعة منى . . يريبنى مارابها . . ويؤذينى ما آذاها».

كم كانت الزهراء عـزيزة عند والدها . . وكم لها فى حنايا قلب والدها العزيز من حب عميق.

وتراجع علىّ بن أبى طالب . . وعادة السعـادة تخيم على البيت الفقـير . . وزادت من سـعادة البيت أن انجـبت فاطمـة أول أبنائها الحسـن . . والذى كان والده يريد أن يسـميـه حرباً فـأسمـاه النبى الحسن.

وكان وليدها الـثانى الحسين . . قرة عين لها رغـم وهن جسدها وضعفه . . وكـان والده أيضاً يريد أن يسميه (حرب) فـأسماه النبى الحسين.

وتمضى الأيام . . ومع كـل يوم يزداد انتـشـار الإسـلام ويزداد أعداؤه . . ومع كـل معركـة جديدة . . يكون بن أبى طـالب أحد فـرسانهـا . . فكم كـان رائعـاً وعظيمـاً . . مـواقف علىّ فى كل المواقع. . حتى أصبحت شجاعته الفائقة لا يختلف عليها أحد.

وهل ينسى الناس مواقفه الرائعـة . . وخاصة يوم الأحزاب . . يوم تألبت القبائل بزعامة قريش . . وحاصرت مدينة رسول اللّه . . وحال بينهم وبين دخـول المدينة ذلك الخندق الذى حفـره المسلمون بعـد أن اقـترح ذلك علـى الرسول سلـمان الفـارسى . . وكـانت

الخنادق وسيلة من وسائل الدفاع عرفها الفرس ولم تعرفها العرب. . يومها وقفت قريش أمام هذا الخندق وقد أعيتها الحيرة . . فما عرف العرب حروب الخنادق ولا شاهدوها . . وخاب أملهم، ولكنهم حاصروا المسلمين . . وأراد أحد فرسانهم المشهورين بالشجاعة والقوة الخارقة أن يتحدى المسلمين . . وأن يخترق الخندق وهو عمرو بن عبد ود . . وتحدى فرسان المسلمين . . وفى كل مرة يرفع عقيرته بالتحدى كان علىٌّ بن أبى طالب بشبابه وإيمانه وشجاعته يطلب من النبى عليه الصلاة والسلام أن يسمح له بملاقاة هذا الفارس المغرور ، والنبى الكريم يخشى على ابن عمه ويقول له بكل العطف:

« إنه عمرو . . أجلس» .

ولكن فارس قريش المغرور يتحدى الجميع بصلف عجيب . . واعتداد زائد بالنفس . . وزاد من صلفه وغروره . . أن الجميع كانوا يخشونه فإذا به يتحدى المسلمين . . ويرفع عقيرته بالتحدى . .

لقد بححت من النداء
لجمعكم هل من مبارز
وقفت إذا وقف الشجا
ع مواقف القرن المناجز
إن شجاعة فى الفتى
والجود من خير الغرائز

ويغلى الدم فى عروق ابن أبى طـالب . . ويتوسل إلى النبى أن يأمره بمنازلته . . ويستجيب الرسول لإلحاح علىٍّ . . فيتقدم الشاب الأسـمر الـقصـيـر القـامة . . الضـخم عـضلة السـاق . . الملئ العضلات . . نحو الفارس المغرور وهو يرد عليه شعراً:

لا تعـجلن فـقـد أتاك
مجيب صوتك غـير عاجز

ذو نيـة وبـصـيـرة
والصـدق منجى كل فـائز

إنى لأرجـو أن تقـوم
علـيك نائـحـة الجنـائز

إنه يتقدم ثابت الخطوات . . واثقاً بنفـسه . . معتداً بذاته . . لا يهتز ولا يرتجف . . ويتعجب عـمرو ويتساءل عن هذا الشاب الذى يتحـداه . . ويعرف أنه علىٌّ بن أبى طالب فيحـاول ألا يبارزه لأنه كان صديقاً لوالده . . ولكن علياً يصر على المبارزة . . ويثير غضبه عندما يطلب منه أن يعلن إسـلامه حتى لا يسفك دمه . . ساعـتها استشاط عمرو غضباً . . وأخذ يبارز علياً بكل ما أوتى من خبرة فى المعـارك . . وعلىٌّ يقاومـه بعنف . . ويتـجنب ضرباته . . حـتى اختـفى المبارزان وسط تراب المعـركة . . وأخذ المسلمـون يترقـبون بلهفة وخوف . . مصير هذه المـعركة . . وكذلك فعل المشركون . .

وإذا بصوت عليّ يرتفع بالتكبير . . وإذا بالصورة تتضح عندما ينقشع تراب المعركة عن عمرو عبد ود مجندلاً فى دمائه وارتفع إلى الآفاق تكبير المؤمنين . . وكانت هذه المبارزة بشيراً بنصر اللّه فى هذه المعركة الحاسمة من معارك الإسلام . . فقد كان المسلمون فى موقف فى غاية الدقة والحرج . .

فهم محاصرون من المشركين .

ويهود بنى قريظة نقضوا عهدهم للرسول . .

والمنافقون فى المدينة أخذوا يظهرون شماتتهم للمسلمين حتى أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يدعو ربه :

« اللهم منزل الكتاب . . سريع الحساب . . أهزم الأحزاب . . اللهم هزمهم وإنصرنا عليهم» .

وشاءت إرداة العلى القدير أن يشتت شمل الكافرين . . والحاقدين والمنافقين . . فيختلفون فيما بينهم . . وتهب رياح عاتية تقتلع خيامهم فيعودون إلى قريش يجرون أذيال الهزيمة . .

ويصف القرآن الكريم هذا الموقف بقوله المعجز :

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا

اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٠-١٣]

لقد شـهد علىّ بن أبى طالب كل المعارك مع النبى عليـه الصلاة والسلام عدا غـزوة تبوك . . فقد خلفه فى أهل بيـته . . كان على يأمل فى مصاحبـة الرسـول فى هذه الغـزوة . . فقـال له رسـول اللَّه ﷺ: « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لانبى بعدى».

وقد أنابه النبى عليه الصلاة والسـلام فى قراءة أوائل سورة التوبة فى موسم الحج عندمـا أرسله فى أثر أبى بكر الصديق . . ليـقرأها ويعلن براءة اللَّه ورسوله من المشركين.

وكان النبى عليـه الصلاة والسلام يحبـه حباً جمـاً . . وقد كان عنده طعام تمنى أن يشاركه فيه إنسان يحبه اللَّه . . فدعا ربه :

« اللهم ائتنى بأحب خلقك إليك ليأكل معى ».

وكان هذا الدعاء من نصيب علىّ بن أبى طالب.

كما أن النبى الكريم وهو فى طريقـة ليلقى خطبة الوداع . . قال لأصحابه عند غدير خم:

« من كنت مـولاه فعلى مولاه، اللهـم وال من والاه، وعاد من عاداه».

هذه صـورة عـن علىّ بن أبى طالب . . الـذى دخل الإسـلام صغيراً . . وتربى فى بيت النبوة . . وأسلم صـغيراً فى التاسعة من عمـره . . وتزوج فاطمة الزهراء فـأنجب منها الحـسن والحسين وأم كلثوم وزينب . . وقد تزوجهـا رضى اللّه عنه بوحى من جبريل . . فقد روى أنس قوله:

- كنت مع النبى فغـشيه الوحى فلما أفـاق . . قال: « أتدرى ما جاء به جبريل؟ .

فقلت: اللّه ورسوله أعلم .

قال : « أمرنى أن أزوج فاطمة من علىّ» .

وقد ورد عن الرسول الكريم قوله لعلىّ بن أبى طالب:

« أنت أخى فى الدنيا والآخرة . .

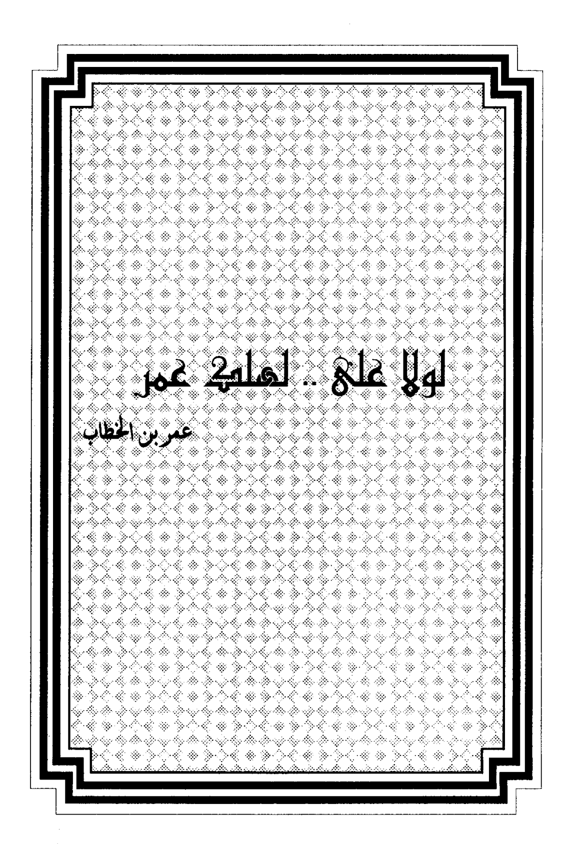
لقد كانت حياته رضى اللّه عنه فى أيام الرسول الكريم نضالاً فى سبيل العقـيدة . . فلم يتخلف عن معركـة من معارك الإسلام . . وكان فارس هذه المعارك وأحد أبطالهـا . . وكم شعر بالحزن عندما استخلفه الرسول على أهله فى المدينة وهو يتـجه بجيشه إلى حدود

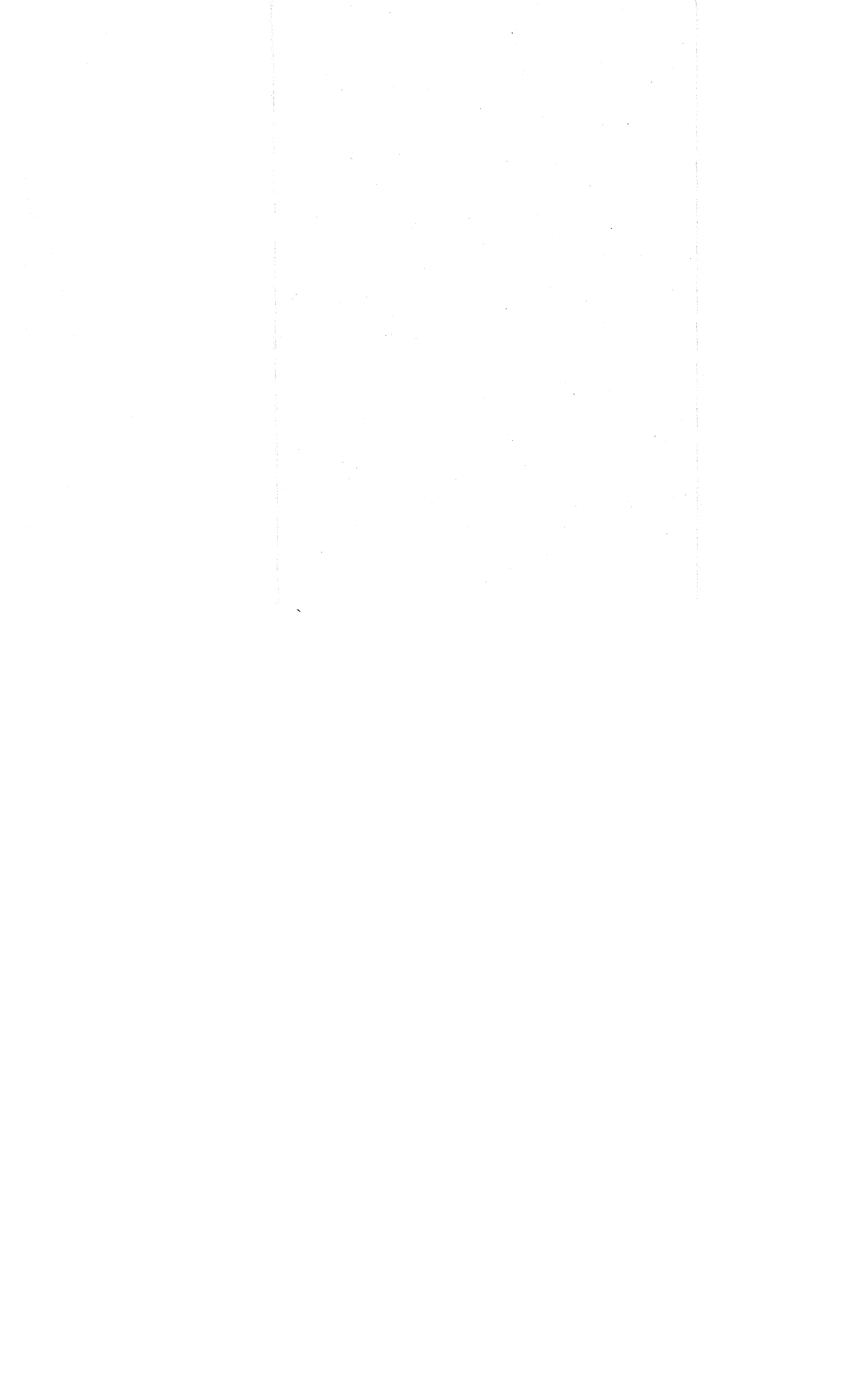
الشـام فى غـزوة تبـوك . . ولم يطمـئن علىّ إلا بعـد أن قـال له الرسول الكريم:

« أما يـرضيك أن تكون منى بمنزلة هارون من مـوسى إلا أنه لا نبى بعدى».

صور مـشرقـة لإنسان تـربى فى بيت النبوة . . وتأثر بصـاحب الرسالة فى كل شئ . . وكان بليغاً تتفجر الحكمة فى ثنايا حديثه . . شجاعاً لا يعرف التردد . . ذكياً بالغ الذكاء.

* * *


لولا علي .. لهلك عمر
عمر بن الخطاب



ومرت أيام رسول اللّه . .

أيام بالغة العظمة . . من خلالها تغير مسار التاريخ الإنسانى كله.

وشهد الناس فى هذه الفترة أعظم شخصية سارت على الأرض. شخصية محمد عليه الصلاة والسلام بما فيها من جلال وقوة وحكمة. . وبما فيها من نبل وشجاعة وصبر وقدوة حسنة.

وأصبح الناس ذات يوم . . فإذا بالرسول الكريم الذى ملأ الأرض نوراً وعدلاً ورحمة . . صاحب القلب الرحيم الذى وصفه ربه بأنه على خلق عظيم . . لأن خلقه كان القرآن . . والذى قال فيه أيضاً:

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

أصبح الناس ذات يوم ليسمعوا خبراً حزيناً مؤلماً هزهم من الأعماق. .

لقد رحل أحب الناس إلى اللّه وإلى الناس إلى الرفيق الأعلى. .

وعلا الوجوم مدينة الرسول . . فى ذلك اليوم الحزين. .

وكان وقع هذا الحدث الجلل عظيماً على الجميع. .

وكان أشد الناس تأثراً به علىٌّ بن أبى طالب . . وفاطمة الزهراء. .

لقد اهتزت النفوس من الأعماق . . وهم يتذكرون كلمات

الرسـول العظيم قـبل الرحيل . . وهو يخـطب الناس فى مرضـه الأخير :

« أيها الـناس بلغنى أنكم تخافـون موت نبـيكم، هل خلد نبى قـبلى فيـمن بعث اللَّه فـأخلد فـيكم، ألا وإنى لاحق بربى وأنكم لاحقون به، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصى المهاجرين فيـما بينهم بخـير فإن الـلَّه يقول: ﴿**وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝**﴾ [العصر: ١ - ٣]

وإن الأمـور تجرى بإذن اللَّه، ولا يحـملنكم اسـتبطاء أمـر على استعجاله، فإن اللَّه عز وجل لا يعجل لعجلة أحد، ومن غالب اللَّه غلبه، ومن خادع الله خـدعه، فهل عسيـتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم.

أوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم تبؤوا الدار والإيمان من قبلكم، أن تحسنوا إليـهم . . ألم يشاطروكم فى الثـمار؟ ألم يوسـعوا لكم فى الدار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟

ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من مـحسنهم ويتجاوز عن مسيـئهم، ألا ولا تستأثروا عليهم فإنى فـرطكم وأنتم لاحقون بى. . ألا إن موعدكم الحوض.

ألا فمن أحب أن يرده على غـداً، فليكفف يده ولسانه إلا فيـما ينبغى .

أيها الناس إن الذنوب تغير النعم فإذا بر الناس برتهم أئمتهم . . وإذا فجر الناس فجر أئمتهم».

كلمات رحيمة . . رائعة . . فيها دستور لمبادئ الإسلام . .

إن هذه الكلمات الرائعة التى قالها صاحب الرسالة ما زال صداها فى آذان الناس . . وما زال وقعها فى قلوبهم.

وها هم يعلمون أن رسول اللّه مات.

وتعم الأحزان المدينة.

ووسط الأحزان التى تخيم على بيت النبوة . . كانت صيحات الزهراء:

أبتاه . . أبتاه . .

يا أبتاه . .

أجاب رباً دعاه . .

يا أبتاه . .

جنة الفردوس مأواه . .

يا أبتاه . .

إلى جبريل ننعاه . .

وفى هذه الظروف الحزينة . . ما كان يدور بخلد علىً رضى اللّه عنه أن السياسة سوف تلعب دورها . . وما زال الجسد الطاهر فى بيت النبوة .

فإذا الأحداث تسير بسرعة مذهلة وتأخذ مساراً عجيباً.

فالأنصار قد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ليتولى الأمر بعد الرسول سعد بن عبادة .

ويعلم ذلك عمر بن الخطاب . . فيأخذ أبا بكر الصديق وأبا عبيدة بن الجراح . . فى محاولة لجمع الشمل . . وحتى لا تطل الفتنة برأسها فى هذه الظروف الصعبة . . فما ينبغى أن يحدث ما يعكر الصفو . . وما زال جسد النبى الكريم على فراش الموت.

ويدور حوار بين الأنصار وبين الصديق وعمر وأبى عبيدة حول خلافة الرسول . . وأيهما أولى المهاجرون أم الأنصار؟.

فالمهاجرون هم أهل النبى . . والذى هاجر معهم تاركين أموالهم وديارهم وأهلهم فى سبيل الدعوة.

والأنصار هم الذين ناصروا النبى وساعدوه وحاربوا معه حتى انتصر الإسلام.

ويدور الجدال . . ويشتد النقاش ويحتد . . ويتقدم الصديق يطلب من الناس مبايعة عمر أو أبى عبيدة.

غير أن عمر بن الخطاب يطلب من الناس مبايعة الصديق . . قائلاً:

- أيكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدمهما رسول اللّه ﷺ . . رضيك رسول اللّه ﷺ لديننا أفلا نرضاك لدنيانا؟.

وبايع الصحابيـان الجليلان عمر وأبو عبيدة أبا بكـر فتقدم الناس بعدهما مبايعين .

حدث كل هذا . . وعليٌّ بن أبى طالب جالس فى بيت الرسول ليعد الجسد الطاهر للمثوى الأخير .

وكان يتـصور أن الأمـر سيكون من نصـيبه ،وأنـه لا يوجد من ينافـسه فى هذا المقـام لقـرابته من الـنبى . . وزواجه من ابنتـه . . وسابقـته فى الإسلام . . وقـد فطن العباس عم النبى عليـه الصلاة والسلام إلى ما يمكن أن يحدث وقال له :

– ابسط يديك أبايـعك . . ويبـايعك هذا الشـيخ (يقـصـد أبا سفيـان) فأنا إن بايعتك لم يختلف عليك أحـد من بنى عبد مناف . . وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يخـتلف عليك أحد من قريش . . وإذا بايعتك قريش . . لا يختلف عليك أحد من العرب . .

وكان رد عليٍّ :

– لنا بجهاز رسول اللَّه شغل . . وهذا الأمر لا يخشى عليه . .

هذا الأمر لا يخشى عليه؟!!

هذا كان يقين ابن أبى طالب . .

وفوجئ عليٌّ بن أبـى طالب بأصوات الناس المكبريـن والمبايعين لأبى بكر الصديق .

ثم عرف ما حدث فى السـقيفة . . فآثر ألا يشق عصـا الجماعة حتى لا تحـدث فتنة بين المسلمـين . . وإن كان قد تريث فلـم يبايع

الصديق إلا بعد فترة من الزمن . . وعندما ماتت الزهراء رضى اللّه عنهـا . . وقف علىٌّ بن أبى طالب يودعـها . . ويشكو حـزنه إلى رسول اللّه ﷺ.

- لقـد استـرجعت الوديعـة . . أخـذت الرهينة . . أما حـزنى فسرمد . . وأما ليلى فمسهد إلى أن يختار اللّه لى دارك التى أنت بها مقيم . . وسـتنبئك ابنتك بتضافر أمـتك على هضمها . . فأحـفها بالسؤال . . واستخبـرها المقام . . هذا ولم يطل بك العهد . . ولم يخل منك الذكر .

لقد بايع علىٌّ الصديق . .

وكان الصديق يعرف لعلى قدره . . ويقدر علمه وفقهه . . وكان كثيراً ما يستشيره . . وكان يقول له :

- أفتنا يا أبا الحسن .

وعندمـا انتـقل الصـديق إلى رحـاب اللّه . . كـان قـد أوصى بالخلافة . . لعمر بن الخطاب . . وبايعـه الإمام . . وكان قريباً من عمر . . وقد تزوج عمر من ابنتـه أم كلثوم . . وكان يستخلفه على المدينة أثناء غيـابه . . وكان يستفتـيه فى كثيـر من الأمور . . وكان يقول عنه :

- لولا علىٌّ لهلك عمر . .

وما أكثر الفـتاوى التى أفتاها الإمام فى خلافـة عمر بن الخطاب وكان جريئاً فى الحق . . لا يخـشى لومة لائم . . وذلك ما يحدثنا

عنه التاريخ . . فقد طلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب امرأة خاض الناس فى سيرتها لسؤالها وكانت حاملاً فأجهضت . . وعلم بذلك عمــر . . فاســتشــار الناس فى هذا الأمــر . . وحكم علىٌّ بن أبى طالب أن المرأة يرجع إجهــاضها إلى خوفهــا من عمر . . وأن على عمر أن يؤدى لها دية . . وفعل عمر ذلك عن طيب خاطر . .

و . . مضت أيام الفاروق .

ووضع الأمر شورى بين ستة من الصحابة من بينهم علىٌّ بن أبى طالب . .

وعندما اجــتمع بعض الصحــابة حوله وهو جــريح . . قال لهم عمر :

- ما أظن إلا أن يأتى أحد هذين الرجلين : علىٌّ أو عثمان، فإن ولى عثمان فرجل فيه لين . . وإن ولى علىٌّ ففيه دعابة . . وأحر به أن يحملهم على طريق الحق» . .

ولكن يبــدو أن قــريشاً كــانت تخــشى أن يصــبح علياً خليفــة عليهم . . فهى تكره أن تكون النبوة والخلافة فى بنى هاشم . . ربما تكون هذه رواسب أيام قــديمة . . قديمة . . قبل الإســلام . . وقد عبر عن ذلك (علىٌّ) نفسه وهو يعرف طبائع أناس عاش بينهم زمناً :

- إنى لأعلم ما فى أنفســهم . . إن الناس ينظرون إلى قريش . . وقريش تنظر فى صلاح شأنها فــتقول : إن ولى الأمر بنو هاشم لم

يخرج منـهم أبداً . . وما كان فى غـيرهم فـهو متـداول فى بطون قريش . .

لقد كانت وصية عمر واضحة . . وخشى أن يتفرق أمر الناس إن احـتد الخـلاف بين أهل الشورى . . فـاستـدعى المقداد وأبا طلحـة الأنصارى وقال:

- إذا وضعتمونى فى حـفرتى . . فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلاً منهم . . وقم على رءوسهم فـإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاضرب رأسه بالسيف . . وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رأسيهما . . فإن رضى ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم فحكموا عـبداللّه بن عمر . . فإن لم يرضوا فـكونوا مع الذين فيـهم عبدالـرحمن بن عوف . . واقـتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس.

لقد خلع عبدالرحمن بن عوف نفـسه من الخلافة . . وكان عليه أن يوفق بين الأطراف لينتخبـوا خليفة عمر من بين علىّ وعـثمان، وسعـد بن أبى وقاص والزبيـر بن العوام وطلحـة بن عبيـد اللّه فى خلال الأيام الثلاثة الـتى حددها عمر على أن يكون الخليـفة الجديد قد ولى الأمر فى اليوم الرابع.

وقـام عبـدالرحمن بن عـوف بمهمـته . . اجـتمع بكل مـرشح واجتمع بكبار الصـحابة . . واجتمع بالمرشحين جمـيعاً . . يسمع منهم وجـهات نظرهم . . وهم يتـحاورون . . وقـال على بن أبى طالب كلمته:

- الحمـد للّه الذى بعث محمداً نـبياً . . وبعثـه إلينا رسولاً . . فنحن بيت النبـوة . . ومعـدن الحكمة . . وأمـان أهل الأرض . . ونجاة لمن طـلب . . لنا حق (إن نعطه) نأخذه . . وإن نمنعـه نركب أعجـاز الإبل ولو طال السـرى . . لو عهد إليـنا رسول اللّه عـهداً لأنفذنا عهـد . . ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليـه حتى نموت . . ولن يسرع أحد قبلى إلى دعوة حق وصلة رحم.

ولكن الأمـر انحـصر فى شـخـصين : علىّ بن أبى طالب . . وعثمان بن عفان . ، وسأل عبدالرحمن بن عوف على وعثمان . . إن كانا يسيران على كتاب اللّه وسـنة رسوله وسيرة الشيخين فكان رد علىّ:

- بل على كتاب اللّه ، وسنة رسوله ، واجتهاد رأيى.

وقال عثمان:

- نعم .

وبايع عـبدالرحـمن بن عوف عـثمـان . . وطلب من الناس أن يبايعوه . . وهكذا تمت البيعة إلى عثمان رضى اللّه عنه.

وقال علىّ بن أبى طالب:

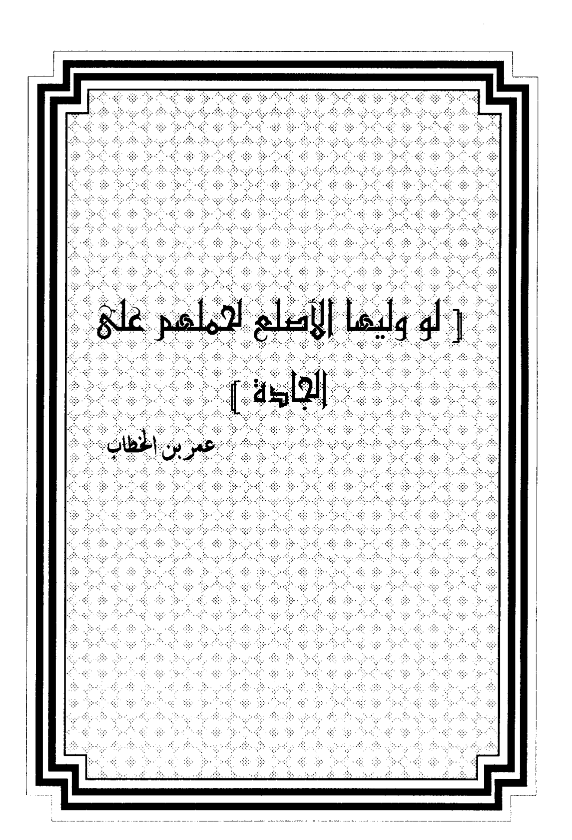
- ليس هذا أول يوم تظاهر فـيـه علينا فصـبـر جمـيل ، واللّه المستعان على ما تصفون . .

وتقدم علىّ إلى عثمان وبايعه . . وخرج من المسجد وهو يردد:

- سيبلغ الكتاب أجله.

* * *




[لو وليها الأصلع لحملهم على
الجادة]
عمر بن الخطاب

وجاءت خلافة عثمـان . . شعر الناس فى أول العهد بها بالأمن والأمان . . فالرجل دمث الأخلاق . . طيب الـقلب . . ليست فيه شدة عـمر . . والفـتوحـات الإسلاميـة تشق طريقهـا إلى أراضى جديدة . . وخزائن الدولة تفيض بالأموال . . والموج الإسلامى فى أعلى ذراه.

ولكن فى السنوات الأخيـرة من حكمه . . ظهرت روافد كـثيرة أدت إلى الفتـنة الكبرى . . فقـد تغيـرت ظروف الحيـاة . . وساد الترف . . وسـمح عثـمان لكبار الـصحابة بالهـجرة إلى الأمـصار الأخرى . . وهو الأمر الذى كان عمـر بن الخطاب يرفضه تماماً . . كـمـا أن توليـة أقـاربه حكم الولايات أثـارت فى النفـوس بعض الضـغائن . . ووجـد بعض الشـباب من مكـة أن الطريق أمامـهم مسدود . . فالمناصب لبنى أمية . . كـما أن أهل البلاد المفتوحة . . والذين ساهمـوا فى الفتـوحات الإسلامـية لم يجدوا هناك مـبرراً لافتـخار أهل مكة بأنفـسهم . . فـهم الآخرون لهم جـهادهم فى الإسلام . . بل إن هؤلاء الذين يفتخرون بنسبهم القرشى لم يدخلوا الإسلام إلا بعد أن فتحها رسول اللّه ﷺ . . ثم عفا عنهم . . و . . هناك روافد كثيرة غـيرت من الحياة الاجتماعيـة حتى أصبح العصر يختلف عـما كان عليه أيام الـشيخين أبى بكر وعمـر . . فإذا بكل هذه الأمور تكون روافـد أدت إلى الفتنة . . فإذا بعـثمان نفـسه فى

موقف صعب . . فهو يرى أن الخلافة قميص ألبسه اللّه له . . وبالتالى لا يمكن أن يخلعه . . وتأزمت الأمور بينه وبين الثوار . . وإذا بعلى بن أبى طالب يحاول أن يطفئ الفتنة . . ولكنه لا يستطيع . . فقد أصبحت الأمور فى غاية الحرج . . وكان هناك من بنى أمية كمروان بن الحكم من حاول أن يؤجج العداوة بين علىّ وعثمان حتى تباعدت المسافة بينهما . . ومن ذلك ما يرويه صاحب الإمامة والسياسة أن عثمان خرج إلى المسجد فإذا هو بعلىّ وهو شاك معصوب الرأس.

فقال له عثمان : واللّه يا أبا الحسن ما أدرى أشتهى موتك أم أشتهى حياتك . . فواللّه لئن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك لأنى لا أجد منك خلفاً . . ولئن بقيت لا أعدم طاغياً يتخذ سلماً وعضداً بعدك كهفاً وملجأ لا يمنعنى منه إلا مكانة منك ومكانك منه . . فأنت منى كالابن العاق من أبيه . . إن مات فجعه . . وإن عاش عقه . . فإما سلم فتسالم وإما حرب فنحارب . . فلا تجعلنى بين السماء والأرض . . فإنك واللّه إن قتلتنى لا تجد منى خلفاً . . ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً . . ولن يلى هذا الأمر بادئ فتنة.

فقال علىّ: إن فيما تكلمت فيه لجواباً ولكنى مشغول بوجعى . . فأنا أقول لك كما قال العبد الصالح . . فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

وتأزمت الأمور . . وحوصر عثمان رضى اللّه عنه فى منزله . .

وأرسل عليٌّ ابنيه الحسن والحسين للدفـاع عن الخليفة . . ولكن أمر اللّه كان قـدراً مقدوراً . . فقتل عـثمان مظلوماً . . وسـيطر الثوار على مدينة رسول اللّه . . وأصبح الأمر فوضى . . وسارت الأمور فى ليل كـثيف الظلام . . وكانـت كل الأصابع تشيـر إلى ابن أبى طالب . . ليقـود الأمة فى أحلك ظروف مرت بهـا . . ويضع حداً للأمور المعقـدة التى آلت إليها حال المسلمين . . بـعد أن اندلع تيار الفـتنة اندلاعاً رهيـباً حـتى بدت الأمور كـقطع من الليل المظلم لا يعرف أوله من آخره .

ظروف عصبية بالغة القسوة . .

الخليفـة قتله الثـوار فى منزله بعد أن تسوروا المـنزل وقتلوه وهو يتلو كتاب اللّه . .

وجسده الطاهر ما زال موجوداً لا يجرؤ أحد على دفنه . .

والثوار يجولون فى المدينة بأسلحتهم يملأونها رعباً وهلعاً . .

وبعض كبار الصحابة تركـوا المدينة من قبل حتى لا يجابهوا هذا الواقع المر . . كـعـائشة رضى الـله عنها الـتى ذهبت إلى مكة . . وعمرو بن العـاص الذى ذهب إلى الشام . . أما أنصار عـثمان من بنى أميـة فقد التجـأوا إلى مكة أو إلى الشام حيث مـعاوية . . ولا يمكن أن تسيـر الحياة بين هذه الأمـواج العابثة فـى ليل مظلم غارت نجومه .

وكـان علىٌّ بـن أبى طالب يقـوم بدور الربـان فى هذه الظروف الصعبة.

وفكر علىٌّ طـويلاً . . إنه يعلم أن الأمـور ليـست سـهلة ولا هينة. . بل هـى فى غـاية الصـعـوبة . . فـعليـه أن يوقف نزيف الفتنة. . وعليـه أن يقتاد من قـتله عثمـان؟ وكيف يمكنه ذلك وهم مسـيطرون بقوة السـلاح على رقاب الناس ؟؟ وعليـه قبل ذلك أن تكون بيعـته سليمة . . بأن يـبايعه أهل الحل والعقـد . . وحتى إذا تمكن من كل ذلك فإن أموراً جديدة قد ظهرت على مسرح الحياة. . فقـد تغيرت الحياة عما كانت عليه أيام رسول اللَّه ﷺ، وعن أيام الشيخين أبى بكر وعمـر . . إنه لا يعرف المداهنة . . والا التواءات السيـاسة . . إنه يرى الحق حقـاً . . والباطل باطلاً. . ولا تعجبـه أنصاف الحلول. .

فهل يمكن لعلىٍّ بن أبى طالب أن يلوى عنق الأيام . . ويعود بها سيرتهـا الأولى يوم كانت النفوس تتوق إلـى الجهاد . . وإلى الموت فى سبـيل العقـيدة . . وتريد أن تعـيش فى اللَّه واللَّه . . ترى فى الدنيـا عـرضـاً زائلاً . . وترى النعـيم كـل النعـيم فى رضـاء اللَّه وعبادته. . وتطهـر النفس من أدرانها . . وقهرها عن شـهواتها . . والانطلاق للشهـادة فى سبيل اللَّه . . حتى ينتـشر نور الإسلام فى كل مكان. .

إن الأمر صعب وشاق. .

فالنفوس تهفوا إلى السلطة والترف والنعيم.

وهم يرون الإسلام قد امتد امتداداً هائلاً وارثاً ميراث كسرى وقيصر.

والحضارة الإسلامية اختلطت بحضارات الأمم التى دخلت الإسلام .. فترفهت الأجيال الجديدة .. ونشأ جيل جديد هو مزيج من الدماء العربية والدماء الفارسية والرومانية والمصرية.

ونشأت أنماط من حياة جديدة.

وعرفت القصور فى الطائف والشام وبقية الأمصار المفتوحة الطرب والأغانى والانغماس فى متع الحياة..

حياة جديدة..

ومجتمعات جديدة..

وتطلعات إلى الغنى والجاه والسلطان.

إن مواكب الحياة تزهر بكل هذا..

ومن تحت رماد السنين تطفوا على السطح نعرات قديمة .. وتقاليد قديمة .. وأمجاد زائفة كان الإسلام قد دفنها وهال عليها التراب..

كان الوضع بعد مقتل عثمان رضى اللَّه عنه سيئاً للغاية .. عاشت مدينة رسول اللَّه فيها تحت رحمة الثوار .. ووجد الناس من الصحابة أنفسهم فى موقف صعب .. فالذين لم تعجبهم

سياسة عثمان لم يكونوا يتصورن أن تكون نهايته بهذا الشكل المؤلم. . حيث يقتل ثم يدفن تحت جنح الظلام . . ولا ينال القتلة عقابهم عما اقترفت أيديهم.

ثم من هذا الذى يمكنه أن يأخذ بدم عثمان والذين اقترفوا الجريمة هم الذين يسيطرون على كل شئ فى المدينة . . وهناك من يشعر بأن الفتنة التى اندلعت نيرانها المحرقة سوف تصيب من يقترب منها . . فابتعدوا عنها مؤثرين السلامة على دينهم.

فما أكثر ما تحدث الرسول عن شرور الفتنة . . حتى الذين نقموا على عثمان لم يسارعوا لنجدته . . وأخذوا موقفاً سلبياً كطلحة والزبير وهم أعضاء الشورى الذين عينهم عمر بن الخطاب . . وجدوا أنفسهم فى موضع غاية الحرج . . فطلحة الذى كان يشجع الثوار على التمرد ما كان يتصور أن الأمور سوف تسير بهذا الشكل البالغ القسوة والعتامة . .

والزبير بن العوام الذى كان يؤيد الثوار فى قرارة نفسه . . وإن كان لم يحرض الناس على الثورة كما فعل طلحة رأى أن الأمر من الصعوبة بمكان وأن السيطرة على المدينة كان شيئاً فى غاية الصعوبة.

وارتسمت فى أذهان الناس الكثير من التساؤلات حول مستقبل المسلمين بعد أن صارت الأمور إلى ما صارت إليه . . كيف تتبدد هذه السحب القاتمة من سماء المدينة؟

ومتى يعود الثوار إلى أوطانهم ؟ إذا لم يكن من المستطاع أن يقتص من قتلة الإمام الشهيد؟ . .

وما هو موقف حكم الأمصار المختلفة بعد مقتل الإمام الشهيد؟

وما الذى سوف يحدث فى مختلف البلدان التى اكتسحها الزحف الإسلامى فى الشمال والجنوب والشرق والغرب.

ولم يكن من السهل على أحد أن يعرف ما تخبئه الأقدار للمسلمين، ثم ماذا يحدث لو داهم المدينة جيش معاوية بن أبى سفيان ابن عم الخليفة المقتول؟

أسئلة كثيرة حائرة من الصعب الإجابة عليها ، وزد على ذلك أن الذين أدوا الحج وسمعوا خطاب عثمان رضى اللَّه عنه -الذى ألقاه ابن عباس- الذى يبرئ فيه ساحته. . عاد هؤلاء الناس إلى بلادهم. . والصورة فى أذهانهم مشوهة عن الأحداث التى تجرى بسرعة كبيرة . .فملأت حياتهم بالقلق والحيرة . . وترقب الأحداث على ساحة العالم الإسلامى.

وكان لابد من خليفة يسوس أمور الدولة الإسلامية . . وكان أكثر الناس إلحاحاً بسرعة إنجاز هذه المهمة الصعبة هم الثوار نفسهم. . خوفاً من أن يأتى جيش الشام فينتقم منهم بجانب عقلاء الصحابة الذين لم يعجبهم ما آلت إليه الأحوال . . وخاصة أن بعض كبار الصحابة قد اعتزلوا تماماً الحياة السياسية . . وكرهوا أن ينضموا لفريق دون فريق كسعد بن أبى وقاص وعبداللَّه بن عمر . .

إن الإنظار كانت تتركز حقيـقة حول علىّ بن أبى طالب . . فهو أبرز من فى الساحة السياسية . . ومواقـفه معروفة فى عهد الرسول وفى عهـد الخلفاء الثلاثة من قـبله . . كان قريبـاً إلى قلب الرسول وكان من أشجع أبطال الإسلام فى المشاهد كلها.

ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة التى تصورها الناس . . وكان علىّ أشـد الناس إدراكـاً بخطورة المنـصب فى هذه الظروف فـزهد فيه . . رغم أن كـان يعتقد تماماً أنه كـان من أحق الناس فى الخلافة بعـد موت رسـول اللَّه ﷺ ولكنه عندمـا كـان منشغـلاً بجـهـاز الرسـول ﷺ وحدث مـا حدث فى اجتمـاع السقيفـة . . وانتهت بمبـايعـة الصـديق . . يومـهـا آثـر علىّ ألا يخـرج على إجـمـاع المسلمين . . وألا يكون سـبباً فـى إشغال نار الفـتنة . . وبذر بذور الشقـاق . . فبايع بعـد فترة . . ثم أوصى أبو بكر بأن يكون عـمر خليفتـه حتى لا يحدث بين المسلمين انقسامات لا يـعرف أحد مدى عواقبـها سوى اللَّه . . وأقره المسلمون على ذلك وبايعـوا عمر . . وكم كان عمـر حصيفـاً وعبقرياً . . وصاحب نظـرة بعيدة . . يوم اختار ستة ليختاروا من بينهم من يتولى الخلافة من بعده . . وهؤلاء الستة ماتوا والنبى عليه الصلاة والسلام عنهم راض . .

وقال عمـر : لو ولوها الأصلع لحملهم على الجادة . . ويـقصد بالأصلع علىّ.

ولكن الصحـابة اختـاروا (عثمـان) ؟ وسارت الأيام . . سـعد

الناس بخلافة عثمـان فى السنوات الأولى من حكمه . . حيث كان أقل شدة من عمر . . وأكثر عطاء . . وفى نفس الوقت كانت رقعة الإسلام تتسع يوماً بعد يوم . . والرخـاء أيضاً ينتشر بين الناس . . ولكن الأحـوال تدهورت بعض الشئ . . ثم سـيطر الثـائرون على المدينة . . حيث انتهى الأمر بقـتل الخليفة -رضى اللَّه عنه مظلوماً- فأصـبح الأمر صـعباً . . والمهـمة شـاقة أمام من يتـولاها فى هذه الظروف البالغة القسوة . . ولكـن لم يكن أمام علىٍّ إلا القبول أمام ضغط بعض الصحـابة . . فعلىٌّ كان أبرز شخصـية من قريش وله تاريخه . . وله مـواقفه الرائعـة فى الإسلام . . وله أيضاً احتـرامه لحب رسول اللَّه له . . وإن كان بعض الصحـابة أيضاً كانوا كارهين أن يكون علىٌّ هو الخليفـة . . لأنهم كانوا يرون أنه يكفى آل هاشم مجداً أن منهم رسول اللَّه ﷺ . . واستكثروا أن يكون منهم النبى ومنهم الخليـفة أيضاً . . وهذه بـعض رواسب الجاهلية الـتى كانت تذكيها عادات الجاهلية ومفـاسدها وخاصة بنى أمية الذين كان يرى زعيـمهـم أبو سفـيان فى النبـوة ملكاً عظيمـاً استطاع أن يـحقـقه محمد . . وإنه ما أسلم إلا بعد أن فتح الرسول مكة نفسها ولم يكن أمامـه سوى الإذعان للإسلام . . فـآثر أن يدخل إلى الإسلام لعله يجد دوراً فى الحياة الجـديدة فى ظل الإسلام . . وقد حقق له النبى بعض غروره يوم قال عند فتح مكة:

« ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن».

واستطاع معاوية أن يلعب دوراً فى الحياة الإسلامية . . عندما قربه الرسول . . وأصبح من كتاب الوحى . . ثم تولى حكم الشام فى خلافة عمر .

إن الأمويين لم يكن من السهل عليهم أن تقبل نفوسهم علىٍّ بن أبى طالب خليفة للمسلمين . . حتى لو سارت الأمور سيرها الطبيعى فمن الصعب أن يقبلوه خليفة وقد قتل عثمان وهو خليفة للمسلمين . . وهو أيضاً أموى . . ولا بد أن يقف الأمويون يشقون عصا الطاعة . . ويؤلبون على (علىٍّ) بحجة جديدة هى دم عثمان . . وضرورة القصاص من قاتليه .

الموقف إذن كان متأزماً غاية ما يكون التأزم . .

والثوار يضغطون على الصحابة لاختيار علىٍّ بن أبى طالب خليفة للمسلمين . .

وفى هذه الظروف . . بويع علىٌّ بالخلافة . . ولم يبايعه سعد ابن أبى وقاص . . وتركه علىٌّ لأنه يعلم أنه اعتزل السياسة منذ فترة . . وامتنع ابن عمر . . فلم يجبره علىٌّ . . ولكنه قال له عندما رفض تقديم البيعة : ما علمتك إلا سيئ الخلق صغيراً وكبيراً . . ولكن الإمام علياً كان يعرف ما يدور فى أعماق طلحة والزبير . . ويعلم أنهما يطمعان فى السلطة فلم يدعهما حتى بايعا .

ولكن الأمر لم ينته عند مبايعة (علىٍّ) فقد برزت أمامه المشاكل من أول وهلة . . . وأولها بالطبع التحقيق فى مقتل عثمان . . ثم

إقامة الحد على القتلة . . وكان هذا الأمـر صعباً للغاية . . بل يشبه المستحـيل . . لأن الثوار يسيطرون سـيطرة تامة على المدينة . . وأن القصاص معناه فى هذه الظروف الصعـبة تأجج العصيان من جديد وتأزم الأمور بصورة يصعب السيطرة عليها .

وكان علىٌّ حكيماً كل الحكمة فى معالجة الأمور . .

بعيد النظر عندما أيقن صعوبة القصاص فى أول أيام حكمه . .

وكـان الطامعـون فى الخـلافة . . والحـاقدون على الإمـام . . يحاولون بلبـة الأفكار . . ووضع العراقيل على الخليفـة الجديد . . حقـداً وحسداً حـيناً . . وطمعاً فى السـلطة حينا آخر . . كـما أن البعض منهم لم يطق أن ترتفع هامة بنى هاشـم فتكون منهم الخلافة بعد أن ارتفـعوا إلى قمة لا تعلـوها قمة أخرى لأن اللَّه جـعل آخر رسالات السـماء فى واحـد منهم وهو أشرف الخلق مـحمـد عليه الصلاة والسلام . . ولهذا كرهت قريش فى أول الأمر هذا فحاربت النبى حرباً لا هوادة فـيها . . إلى أن تم نصر اللَّه . . وبعـدها كره الكثـيرون مـنهم أيضاً أن تكـون الخلافـة من نصـيب على بن أبى طالب . .

نعرة جاهلية قديمة طفت فـوق السطح . . وسببت مآسى فادحة للعالم الإسـلامى كله . . فقـد توقفت الفتـوحات الإسلامـية . . واندلعت نيران الحرب الأهلية بين المسلمين بعضهم بعض . . ووقع مـا كـان يحـذر النبى الكريم منـه . . اندلعت الفتن . . وظهـرت

الأطمـاع . . والتطلعـات . . ولعـب بريق المال دوراً . . ودخلت السياسة فى المعمعة . . سياسة تمسك فيها بشرف الكلمة علىٌّ بن أبى طالب . . واستخدمها خصومه مكراً ودهاء أو خديعة . .

وكان علىٌّ يعرف كل ذلك . .

ولكن كان من الصعب عليه أن يتـخلى عن أخلاقياته ومثله . . وهو الذى تربى فى بيت النبوة . . فهو القائل:

– من هوان الدنيا على اللَّه أنـه لا يعصى إلا فيهـا . ولا ينال ما عنده إلا بتركها . .

إن السياسة عنده حقوق وواجـبات . وطريق واضح مستقيم . . وكان يعـرف أسلحة خصـومة ولكنه لم يسـتخدمـها . . أليس هو القائل:

– واللَّه ما معاوية بأدهى منى . . ولكنه يغدر ويفجر وأنا امرؤ لا أحب الغدر.

لقد بويع علىٌّ بالخـلافة لخمس بقين من ذى الحجـة سنة خمس وثلاثين ، فى هذه الظروف . . فكيف كانت خلافتـه التى استمرت خمس سنوات لم يهدأ لـه فيها بال . . بل عاشـها فى ظروف بالغة الصـعـوبة . . يحـاول فـيـهـا أن يعـيـد الناس إلى أيام الرسـول والشيـخين. . وأن ينشر على الحـياة رحيق أيام عظـيمة . . ويعـيد الناس إلى منبع الإسـلام الصافى، وتمنى أن ينشـر بين ربوع البـشر روح الإسلام ، وطهارة الإسلام . . وعدالة الإسلام . . ولكنه كان

يسيـر على أرض ليست مليـئة بالأشواك فـقط . . بل مليئة بالحـفر والمطبات وأهواء الدنيا . . ونزوات السياسة . ومطامع الحياة وعشق الشهوات . . فكانت فترة خلافتـه رغم معاناته الشديدة من الفترات الحاسـمة فى تاريخ الإسـلام . . والفكر الإسلامى . . فـقد تركت أثاراً خطيرة ليست فى عصره فقط . . بل فى عصور كثيرة بعده . . وما زالت أصـداء هذه الأحداث ترن فى سمـع الزمان . . منذ أيام خلافته حتى الآن.

* * *

اللهم إني استعديك على قريش..
فإنهم قطعوا رحمي .. واكفأوا
إنائي .. وأجمعوا على منازعتي
حقا كنت أولى به من غيري

علىٌّ بن أبي طالب

بيعة علىّ

تولى علىٌّ بن أبى طالب الخلافة فى هذه الظروف الصعبة . . تحت ضغط الثوار . . وتحت مطالبة أهل المدينة بسرعة أن يصبح للمسلمين خليفة . . قبل أن تستفحل الأمور . . فما كان أحد يدرى ما تخبئه الأقدار .

الناس يخشون أن يرسل معاوية بجيوش الشام للانتقام من الثائرين . . والثائرون أنفسهم يخشون أيضاً ما يخشاه أهل المدينة رغم سيطرتهم عليها . . لم يكن علىٌّ متحمساً هذه المرة لأن يتولى الخلافة فى هذه الظروف الصعبة . . لأنه يعلم أن هناك من يكره أن يتولى هو الخلافة رغم أنه كان أبرز صحابة رسول اللّه . . فهو يعلم أن طلحة كان من المؤلبين على عثمان . . وأنه يطمع فى الخلافة .

وكان على يعلم أيضاً أن الزبير يطمع فى الخلافة . . وأنه كان ناقماً على حكم عثمان . . ولكنه لم يفعل ما فعله طلحة . . فلم يؤلب أحداً على عثمان .

وعلى يعلم تماماً أن يده نظيفة من الفتنة . . فقد أرسل ولديه الحسن والحسين للدفاع عن عثمان . . وأنه نصح له كثيراً فلم يستمع لنصح . . وكان الأمر أصعب من أن يحله إنسان بعد أن اندلعت نيران الفتنة فقتل عثمان وكان ذلك قدراً مقدوراً .

لقد كان مقتل عثمان زلزالاً هز الناس من الأعماق . . فما كان أهل المدينة يتصورون أن الأمر سيصل إلى هذا الحد فيقتل الخليفة الثالث وهو يقرأ كتاب اللَّه . . ولا يدفن إلا فى ليلة شاحبة . . غائرة النجوم.

كل هذه الأمور لم تكن خافية على ابن أبى طالب . . ولا كانت خافية على العقلاء من أهل المدينة أو الثوار . . من هنا فقد أراد علىٌّ أن يحتاط للأمر فعرض على طلحة والزبير أن يبايعهما بالخلافة، ولكنهما رفضا حتى لا يعرف الناس أنهما كانا ناقمين على عثمان لطموحهما للرئاسة.

لقد كانت السماء ملبدة بالسحب القاتمة . . لا أمن ولا أمان . .

والغد مغلف بضباب من القلق والحيرة وعدم الاستقرار.

والأمة الإسلامية كلها فى مفترق طريق صعب . . فالثغور الإسلامية مهددة بالعدوان الرومانى . .

وكل قطر له هوى خاص . .

فأهل مصر هواهم مع علىٍّ . . وأهل الكوفة مع الزبير . . والبصرة مع طلحة . . ومعاوية فى الشام يحاول أن يركب الأحداث ويوجه مسارها إلى صالحه الخاص . . فهو ابن عم الخليفة الشهيد فليتخذ من دماء عثمان وسيلة للانتقام والارتقاء نحو أحلام بنى أمية القديمة فى الزعامة . . وليتخذ من قميص عثمان ذريعة لإثارة

البلبة.. حتى يجمع كل الخيوط فى يده .. ويحقق حلم حياته.. وهو على ثقة من تأييد أهل الشام له .. بحكم سيطرته الكاملة عليه.

لقد كان علىٌّ يريد الخلافة لنفسه بعد وفاة الرسول الكريم .. ويراها حقاً له .. ولكن الخلافة تولاها الصديق بعد أحداث السقيفة.. وبايع هو بعد فترة .. على اختلاف الرواة فى مدة هذه الفترة .. وإن كان فى أعماقه يشكو إلى ربه ظلم أهل مكة بمجافاتهم آل بيت رسول اللَّه حتى قال يوماً:

- اللهم إنى استعديك على قريش .. فإنهم قطعوا رحمى .. وأكفأوا آبائى .. وأجمعوا على منازعاتى حقاً كنت أولى به من غيرى.

وعندما عاتبه البعض فى أنه لم يشارك فى الأحداث التى جرت بسرعة عقب وفاة رسول اللَّه ﷺ كان رده:

- أفكنت أدع رسول اللَّه فى بيته لم يدفن .. ثم أخرج أنازع الناس سلطانه ؟..

وقد أوصى أبو بكر من بعده لعمر بن الخطاب وأقره الناس على ذلك.

وعقب الاعتداء الآثم على الفاروق وضع الأمر شورى بين ستة من أصحاب الرسول .. وتم اختيار عثمان رضى اللَّه عنه.

وبعـد عثـمان اتجـهت الأنظار إلى علىٍّ بن أبى طالب . . فـهو الوحـيـد الذى يمـكنه أن يتـقلد أمـور المسلـمين . . رغم الظروف القاسية . . ورغم أن عدداً من كبار الصحابة رفضوا مبايعته من أمثال سعد بن أبى وقاص . . وعبداللَّه بن عمر . . وحسان بن ثابت . . وأسامه بن زيد . . وعبداللَّه بن سلام . . وقدامة بن مظعون . . وأبى سعـيد الخدرى . . والنعـمان بن بشيـر . . ومسلمـه بن مخلد . . وفضالة بن عبيد وغيرهم . .

وفى المسجد بايـع الناس علياً . . وأحضر الثوار طـلحة والزبير ليبايعـا علىٍّ بن أبى طالب . . وعندما حاول طلحة التـباطؤ قال له مالك الأشتر أحد قادة الثورة على عثمان :

- واللَّه لتبـايعن أو لأضربن ما بين عينيك . . وهنا تقـدم طلحة وبايع علياً . . وكذلك فعل الزبير .

ولقد دافع طلـحة والزبير أمـام الناس عن موقـفهمـا من الإمام الشهيد ليبرئا ساحتهما أمام الناس فى المسجد . . قال طلحة :

- أيها الناس . . إنه واللَّه ما نقول اليوم إلا ما قلناه أمس . . إن عـثمـان خلط الذنب بالتـوبة حـتى كرهنـا ولايته . . وكـرهنا أن نقتله . . وسرّنا أن نكفاه . . وقد أكثر فيه اللجاج وأمره إلى اللَّه . .

وقال الزبير :

- أيهـا الناس إن الـلَّه قـد رضى لكم الشـورى فـأذهب بهـا

الهوى. . وقد تشاورنا فرضينا علياً فبـايعوه . . وأما قتل عثمان فإنا نقول فـيه أن أمره إلى اللَّه . . وقـدأحدث أحـداثاً واللَّه وليه فيـما كان .

وواضح من كلام الزبير أنه يخشى أن يتهمه الناس بالتكالب على طلب الحكم. .

ومعروف أن الزبير له مواقف فى الإسلام فهو الذى تسلق حصن بابليون فى مصر . . وفتحه وكان ذلك نصراً كبيراً على الرومان فى مصر. .

وكان لطلحة أيضاً مواقف تاريخية . . فهو الذى وقف يدافع عن رسول اللَّه ﷺ فى أحد . . حتى أصيبت يمينه بالشلل عندما تلقى بها سيفاً كان موجهاً لرسول اللَّه . .

وتمت البيعة لعلىٍّ بعد خمسة ليال فى أصح الروايات . . وبعدها قام علىٌّ فخطب الناس أول خطبة له . . قال فـيها بعد أن حمد اللَّه وأثنى عليه :

- أيها الناس . . إن اللَّه أنزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر . . فخذوا الخير ودعـوا الشر . . الفرائض الفرائض . . أدوها إلى اللَّه تعالى يؤدكم إلى الجنة . . إن اللَّه حـرم حرمات غير مـجهولة . . وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها . . وشد بالإخلاص والتوحيد حقـوق المسلمين . . فالمسلم من سلم المسلمـون من لسانه ويده إلا بالحق . . لا يحل دم امرئ مسلم إلا بما يجب . . بادروا أمر العامة

وخـاصـة أحـدكم . . الموت فـان الناس . . وإنما خلفكم السـاعـة تحدوكم . . تخففوا تلحـقوا . . فإنما ينتظر الناس أخراهم . . اتقوا اللّه عباد اللّه فى عباده وبلاده . . وإنكم مـسئولون حتى عن البقاع والبهائم . . وأطيـعوا اللّه عز وجل ولا تعصـوه . . وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشـر فدعوه واذكروا إذ أنتم قليل مستـضعفون فى الأرض . .

وواضح من هذه الخطبـة أن الإمام يريد أن يعيـد الناس إلى أيام النبوة . . حيث الطهـر والنقاء . . والبعد عن زيف الدنيا وبهـرجها وخوف اللّه والعمل على تقواه . .

وهكذا أصـبح هذا اليوم المشـهـود . . يوم تربع علىٌ بالخلافـة لخمس بقين من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين . . بدايـة فترة صعبة من التاريـخ الإسلامى . . امتـدت إلى حوالى خـمسـة أعوام . . قضـاها الإمام فى صعاب جـمة . . لم يهدأ له فى خـلالها بال . . يحاول أن يعـيد الناس إلى النبع الصافى . . نـبع النبوة الطاهر . . ويحاول أن يعـيد وحدة المسلمين على كتـاب اللّه وسنة رسوله . . فالى أى حد استطاع الإمام أن يحقق هذه الامال . .

وهل استطاع أن يتغلب على المشكلات الضخمة التى واجهته؟

وبأى قوة إرادة خارقة حاول أن يحقق المستحيل؟

وكيف حاول أن يجتاز كل هذه الأهوال التى وضعت فى طريقه؟

خـمسـة أعـوام من المعاناة وهـو يسيـر على طريق من الشـوك والصـعاب. . إلى أن ذهب إلى رحـاب اللّه لتـتغـير بعـده معـالم الصـورة كلهـا . . وتتحـول الخـلافة الراشـدة من بعـده إلى ملك عـضـوض على يد بنـى أمـيـة . . وتظهـر فى الإسـلام مـذاهب وأفكار. . عملت على تفـتيت وحدة المسلمين . . وتفـريق شملهم من الداخل . . رغم أن الإسـلام اندفـع بعـد ذلك بقـوة ليـحـقق انتصارات جديدة ويضم إلى مساحته مساحات شاسعة من الأراضى فى أوروبا وأفريقية . . ولكن آثار هذه الفترة من حكم الإمام تركت آثاراً بعـيـدة المدى فى مـسار التـاريخ الإسـلامى بعـد ذلك لعـدة أجيال. . وما يزال.

* * *

متى يطلبون دم عثمان !
اللهم إني أبرأ إليك من دم
عثمان.. نجا والله قتله عثمان
إلا أن يشاء الله

علىّ بن أبي طالب

سياسة الإمام

تولى الإمام علىٌّ الخلافة فى هذه الظروف الصعبة كما رأينا . . وكان فى أوسط العمر . . أصلع الرأس . . تملأ لحيته صدره . . آدم شديد الأدمة . . أدعج عظيم العينين . . متوسط الطول . . حسن الوجه . . وكان عليه أن يجد حلولاً لعديد من المشكلات . . وأهم هذه المشكلات هو الثأر من قتلة عثمان . . ثم النظر فى أمور الولاة الذين كانوا يحكمون الأقاليم فى خلافة عثمان .

وكان إلحاح الصحابة شديداً فى أخذ الثأر من قتلة عثمان .

وكان الأمر فى غاية الصعوبة . . فالثوار الذين يراد أخذ الثأر منهم يحتلون المدينة . . وليس لعلىٍّ جيش يمكنه من السيطرة على المدينة .

وفى نفس الوقت فقد هرب من المدينة بنى أمية متوجهين إلى الشام حيث معاوية أو إلى مكة البلد الحرام . . وخرج طلحة والزبير إلى مكة بحجة العمرة . . وفى الشام رفع معاوية قميص عثمان المخضب بالدماء وأصابع زوجته نائلة التى أطارتها سيوف الثوار على منبر جامع دمشق ليثير الناس ضد قتلة عثمان .

كانت كل هذه الأمور واضحة أمام علىٍّ . . وعندما خطب خطبته الأولى كان يطلب من الناس العودة إلى الدين فى منابعه

الصافيـة المتمثلة فى الكتاب والسنة ، ولكن الناس كـانوا قد تكالبوا على الدنيا . . يريـدون الحياة والثـروة والمناصب . . ثم عادت إلى سطح الحياة الاجتماعية نغمـة كان الإسلام قد قضى عليها . . نغمة التفاخر القبلى والتفـاخر بالأنساب . . وعاد الصراع على أشده بين بنى أمية وبنى هاشم . . فها هو نجم جديد يبزغ فى حياة العرب من بنى هاشم بعـد أن تولى الخـلافـة علىٌ بن أبى طالب . . وهذا مـا كانت ترفضه قـريش . . ما كانت تريد أن ترى لبنى هاشم كل هذا المجد والسؤدد . . فيكفيهم أنهم ارتفعوا على القمة برسول اللَّه ﷺ فـقد كـان واحـد منهم . . فهـل يرضون أن يكون الخليـفـة منهم أيضاً؟! .

وأخذ بنو أمية يبحثون عن وسيلة لإثارة الفتن والاضطرابات على (علىٍّ) . . فهـم فى موقف قوى . . إنهم أصـحاب الثـأر لعثـمان رضى اللَّه عنه . . ومعاوية يحكم قـبضته على الشام لأنه حـاكمها منذ أيام عمر بن الخطاب ولديه المال والسـلاح والرجال . . وأخذوا يحرضون الناس ويقولون أن علياً نفسه مـسئول عن مقتل عثمان . . وإلا فلماذا لم يقتص من القتلة . . وعلى رأسـهم الأشتر وهو أحد الثوار ضد عثمان . . وهو الذين بايع علياً وانضم إليه . .

والغريب أنه كان عـلى رأس المطالبين بالأخذ بثأر عثـمان طلحة والزبير . . . وكلاهما كان له ضلع فى التأليب على الإمام الشهيد .

ووجد علىٌ نفسـه فى موقف حرج . . فليس بمقدرته محـاكمة

الثـوار لأنه لا يملك من القوة والسـلاح ما يحـقق له ذلك . . وإذا فعل وثارت ثورة للثوار وثورة بعض القبـائل التى ينتمى إليها بعض المتهمين . . فماذا ستكون عليه حال البلاد؟ لا أحد يعرف ما سوف تتمخض عنه الأحداث . . وكان رأى الإمام أن يتريث بعض الوقت فى هذا الأمر إلى أن ينتـهى من مهمـة أهم . . وهو أن يتولى ولاة جدد للأمـصار بدل هؤلاء الذين عينهم عـثمان وثار عليهم زعـماء تلك الأمصار.

وقرر الإمام فـصل جميع الولاة على أن يتـولى بدلهم ولاة جدد يثق فيهم الإمام . . ويرضى عنهم أهل الأقاليم.

وقيل أن المغـيرة بن شعبة نـصح الإمام أن يبقى عمـال الأمصار بعض الوقت حتى يمكنه إحكام سيطرته على الأمصار الإسلامية ثم يفعل بعد ذلك مـا يشاء . . بما فى ذلك معاوية بن أبى سـفيان . . ولكن علياً رفض هذا الاقتراح .

وقيل أيضاً كما يروى البعض من الرواة أن ابن عباس أيضاً نصح الخليـفة بأن يبقى الـولاه بعض الوقت حتى تسـتقيـم له الأمور . . رفض الإمام مصراً على عزل الولاة.

وقيل أيضـاً أن المغيرة جـاء إلى علىٍ فى اليوم التالى وأخـبره أنه كان يمتحن عليـاً ويريد أن يعرف نيته مع الولاة . . ولكنـه يقر علياً على خلعهم ولما سأل ابن عباس ابن عمه علىٍ عما نصح به المغيرة. وعرف ما أشار به المغيـرة . . وهو من دهاة العرب . . قال له: لقد نصحك بالأمس وغشك اليوم.

لقد كان الإمام يرى أنه لا مجال للمداهنة على حساب الدين. . وأنه لا بد أن يحكم الناس كما كانت تحكم أيام أبى بكر وعمر. . وأن يكون الحكم من خلال المبادئ والقيم الإسلامية النبيلة . . لا من خلال دسائس السياسة ومكرها وخداعها . . لقد أراد أن يبدأ حكمه بداية جديدة . . وبحكام جدد يثق فيهم . . فأرسل عثمان ابن حنيف إلى البصرة . . وعمار بن شهاب إلى الكوفة . . وقيس ابن سعد بن عبادة إلى مصر. . وعبيد اللَّه بن عباس إلى اليمن. . وسهل بن حنيف إلى الشام.

ولم يستطع سهل بن حنيف دخول الشام فقد رده عنها جنود معاوية. . واحتال قيس بن سعد حتى دخل مصر . . فأطاعه البعض وعارضه البعض . . واستطاع عثمان بن حنيف أن يتملك مقاليد الأمور فى البصرة لأن حاكمها ابن عامر لم يعارضه . . ولم يستطع ابن شهاب أن يدخل الكوفة لأن الناس كانوا متمسكين بأبى موسى الأشعرى فرجع إلى المدينة . . واستطاع عبيد اللَّه بن عباس دخول اليمن . . لأن واليها يعلى بن منية أخذ الكثير من الأموال وهرب إلى مكة.

ورفض معاوية مبايعة علىٍّ واتهمه بالتقصير بالأخذ بدم عثمان. . وكان يرى أنه ولى عثمان . . وأن له حق القصاص من قاتليه . . وبعد ثلاثة أشهر من خلافة علىٍّ بعث معاوية برسول ومعه رسالة للخليفة ليس فيها شئ سوى العنوان من معاوية إلى

عليٍّ . . ولم يقل أمير المؤمنين . . وكان هذا الرسول من بنى عبس وكان معاوية قد أمره عند دخول المدينة أن يرفع الطومار حتى يراه الناس . . وقد رآه الناس وعرفوا أن معاوية معترض على الإمام . . وعندما وصل هذا الرسول بالرسالة إلى عليٍّ سأله عليٌّ:

- ما وراءك؟ .

رد الرسول: تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود . .

فسأل عليٌّ: ممن؟ . .

قال الرجل: من خيط نفسك ! وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق.

فقال الإمام : منى يطلبون دم عثمان ! اللهم أنى ابرأ إليك من دم عثمان . . نجا واللّه قتلة عثمان إلا أن يشاء اللّه . .

ولم يكن أمام عليٍّ سوى الحرب . . وأن يخضع معاوية للخلافة بالقوة . . وأرسل إلى ولاته فى الكوفة ومصر والبصر لإعداد الجند . . فعليٌّ يعلم أن بيعته صحيحة . . وأنها ملزمة لمن لم يبايع .

وبينما عليٌّ يعد القوة للزحف نحو الشام . . جاءته أخبار خطرة . . جد خطيرة . . وهذه الأخبار هى خروج عائشة أم المؤمنين ومعها طلحة والزبير وعدد كبير من المسلمين متوجهين إلى البصرة . . وأن طلحة والزبير قالا للناس أنهما بايعا عليا خوفاً من

السيوف . . لقـد كان كل منهما يطمع علـى الأقل أن يتولى إمارة . فالزبير كان يطمع فى أن يتولى حكم العراق .

وطلحة كان يتمنى حكم اليمن . .

فلما لم يتـحقق أملهمـا فيما طمـحا فيـه . . أعلنا الثورة على الإمام .

أمور عصـيبة تواجه الإمام مع بدايات حكـمه . . فلم يكد يقرر قتال الخـارجين على الخلافة متمـثلاً فى معاوية بن أبى سـفيان . . حتى جـاءته تلك الأنباء الخطيـرة التى حدثت فى مكة وتتـزعمـها عـائشة . . وطلحـة والزبير . . إنهـا بدايات خطيـرة لحرب أهليـة خطيـرة فى الإسلام . . ومـا كان الإمـام يريد خـوض معـارك مع المسلمـين . . ولكنه دخل هذه الحـــروب مـضطراً . . فـــلا يمكنه الصمت بينمـا تقود عائشة وطلحة والزبيـر جيشاً إلى البـصرة فهى دعوة للتمرد على الخلافة .

وكـان الأمر عـسيـراً على الإمام . . فـأهل المدينة لم يسرعـوا لمناصرته . . بل تثاقلوا . . وقالوا له :

– لا واللَّه لا ندرى كـيف نصنع . . فإن الأمـر اشتبـه علينا . . ونحن مقيمون حتى يضئ لنا ويسفر .

وأراد الإمام أن ينهض عبداللَّه بن عمر معـه حتى يتبعه بقية أهل المدينة . ولكن عبداللَّه هو الآخر تهرب من هذا الموقف وقال :

- إنما أنا من أهل المدينة، وقد دخلوا فى هذا الأمر فدخلت معهم، فإن خرجوا أخرج معهم، وأن يقعدوا أقعد.

ونحن نعرف أن عائشة خرجت إلى مكة، والثوار يحكمون حصارهم على عثمان .. وكان موقفاً سلبياً من الثورة على عثمان.. وهناك علمت بمقتل عثمان ... وعندما كانت تتأهب للعودة .. علمت أن الذى تولى الخلافة علىٌّ بن أبى طالب .. فثارت ثورتها على الإمام .. فهى تكرهه منذ حادث الإفك .. عندما طلب علىٌّ من الرسول أن يتزوج عندما سأله الرسول رأيه.. وقد برأها اللَّه .. ولكنها لم تنس لعلىٍّ موقفه منها ولا غفرت له قولته للرسول الكريم .. لقد عادت إلى مكة لتدفع الناس إلى الثورة على الإمام وقد ذكرها البعض من موقفها من عثمان .. وأنها أدانت سياسته لماذا تعود اليوم وتعلن بين الناس:

- قتل واللَّه عثمان مظلوماً .. واللَّه لأطلبن بدمه.

قالت لهم:

- إنهم استتابوه ثم قتلوه .. وقد قلت وقالوا، وقولى الأخير خير من قولى لأول..

عادت عائشة إلى مكة .. وخطبت الناس على باب المسجد.. وأججت شعور الناس .. قالت لهم:

- أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل

المدينة اجتمعوا . . إن غاب الغوغاء عن هذا المقتول بالأمس الأرب واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله، ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم، وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحاً لهم، فلم يجدوها حجة أو عذرا فلجوا وبادروا بالعدوان ونبأ فعلهم عن قولهم . . فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام . . وأخذوا المال الحرام . واستحلوا الشهر الحرام . . واللَّه لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم . . فنجاء من اجتماعهم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم وبشروهم من بعدهم، واللَّه لو أن الذى اعتدوا عليه ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذا ماحوه كما يماحى الثوب الماء.

إن هذه الخطبة التى أشعلت بها أم المؤمنين عائشة حماسة الناس لم يكن الدافع لها سوى كراهيتها للإمام علىٍّ منذ حادث الإفك . . ولو أن الخلافة لم تكن من نصيب علىٍّ ما ثارت هذه الثورة . . فهى كانت تتمنى أن تكون الخلافة للزبير، لأنه زوج أختها أسماء أو طلحة لأنه من قومها بنى تميم . . أما أن تأتى الخلافة لعلىٍّ فهذا أمر لا تطيقه ولا ترضاه . . .

حتى أن الرواة قالوا أن رسول اللَّه ﷺ أثناء مرضه خرج يتوكأ بين العباس وعلىٍّ بن أبى طالب . . وعندما استعرضت هى هذه

الحادثة قالت خـرج يتهادى بين العبـاس ورجل آخر . . أى أنها لا تريد أن تذكر (علىٍّ) على لسانها . .

لقد كانت تكره علياً . . هذه حقيقة . .

وكانت خطبتها فى مكة سبباً فى تشجيع بنى أمية على الانضمام لها . .

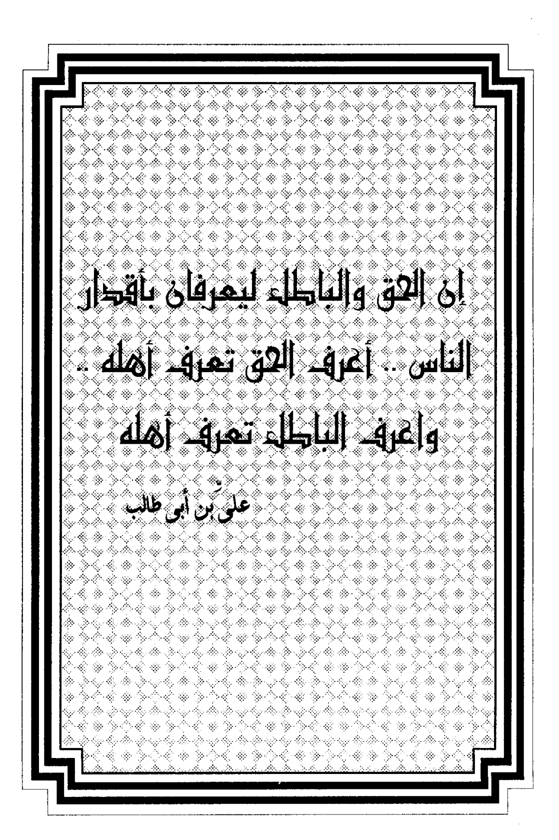
وكان أول من لبى دعـوتها على التـمرد على الإمام عـبداللَّه بن عامر . . وكان عـامل عثمان على البصرة . . وقـد جاء بمال وفير . كما انضم إليه بعلى بن أمية الذى قـدم هو الآخر بمال كثير . . كان والى عثمان على اليمن فلما عزله الإمام عـاد ومعه ستمائة بعير . . وستمـائة ألف درهم . . كما يقول ابن الأثير . . ولقد اسـتخدمت كل هذه الثروة فى المعركة ضد الخليفة .

كانت خطة عائشة أن تتوجـه إلى المدينة لمحاربة الثوار . . بحجة الأخذ بثأر عثمان . . ولكن أصحابها اعترضوا على ذلك . . وقالوا لها :

- يا أم المؤمنين . . دعى المدينة فإن من معنا لا يطـيقون الوقوف أمام هذه الغوغـاء التى بها . . واشخصى معنا إلى البـصرة . . فإنا نأتى بلداً مضيـفاً وسيحتجون عـلينا فى بيعة علىٍّ بن أبى طالب . . تنهضيهم كما أنهضت أهل مكة . . ثم تقعدين فإن صلح هذا الأمر كمـا تريدين . . وإلا احتسبنا ودفـعنا عن هذا الأمر بجهـدنا حتى يقضى اللَّه ما أراد . .

وأردات عائشة أن تأخذ معـها بعض أمهات المسلمين . . وكانت هناك فى مكة أم سلمه وحفصة بنت عـمر . . أما أم سلمه فرفضت لأن هواها كان مع علىٍّ . . وأما حـفصه فقد منعها أخـوها عبدالله ابن عمـر من الخروج . . فقد كـان فى مكة للعمرة بعد أن اسـتأذن علياً وأذن له . . وهكذا خيم ظلام كـئيب على الحياة السيـاسية فى بداية حكم عـلىٍّ . . وكـان عليـه أن يواجـه هـذا الصـراع الدامى الرهيب . . وكان ذلك بداية حرب أهليـة رهيبة . . اندلعت كالريح الهوج . . تعصف بكل شئ . . حتى كادت الحـقيقة أن تتوه وسط عواصف الفتن والأهواء . .

* * *


إن الحق والباطل ليعرفان بأقدار
الناس .. أعرف الحق تعرف أهله ..
واعرف الباطل تعرف أهله
علي بن أبي طالب

معركة الجمل .. وأحقاد قديمة

عرفنا أن عائشة كانت تكره الإمام لأنه قال للرسول -ما أغضبها- عندما انتشرت تلك الإشاعة السخيفة حول أم المؤمنين . . والتى أطلق عليها حادثة الإفك . . فقد خرجت عائشة مع الرسول فى غزوة بنى المصطلق . . وقد خرجت من هودجها بعد انتهاء المعركة بعيداً فى الصحراء لقضاء حاجتها . . وانفرط عقدها . . ورجعت إلى المعسكر . . ولاحظت أن عقدها قد انفرط . . فرجعت إلى المكان الذى سقط فيه العقد . . وأخذت تجمع حباته . . وعندما عادت كان الجيش قد أخذ طريقه إلي المدينة . . وقد حملوا هودجها فوق البعير دون أن يحسوا أنه ليس به أم المؤمنين . . وكان متخلفاً عن الجنود رجل اسمه صفوان بن المعطل السلمى . . رآها فعرفها . . فأركبها بعيره . . وقاده بها حتى يلحق بجيش المسلمين . . والحادثة عادية . . وما كان يمكن أن يكون لها أثر يذكر إلا أن ألسنة المنافقين وعلى رأسهم عبد اللَّه بن أبى بن سلول . . أخذ يطلق الإشاعات القذرة حول أم المؤمنين . . واتهمها فى شرفها مع هذا الجندى . . وسمع رسول اللَّه ﷺ ذلك فشعر بحزن عميق وخطب الناس قائلاً:

«يا أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم

غـير الحق . . واللَّه مـا علمت منهم إلا خـيراً . . ويقـولون ذلك لرجل ما علمت منه إلا خيراً . . ومـا يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى؟!».

وغضب الصـحابة بهـذه الإشاعة الكاذبة . . وعنـدما استـشار الرسول الكريم علىٍّ بن أبى طالب فى ذلك قال له علىٌّ:

- يا رسول اللَّه . . النسـاء كثيـرات وإنك لقادر أن تسـتخلف، وسل الجارية فأنها ستصدقك.

وضرب علىٌّ بن أبى طالب جاريتها (بريرة) وهو يقول لها:

- أصدقى رسول اللَّه ﷺ.

وقالت له بريرة :« واللَّه ما أعلم إلا خيراً».

وكانت مـحنة نفسـية قـاسية لـلرسول . . ولعائشـة ولوالدها العظيم. . أبى بكر الصديق وأمهـا أم رومان حتى نزلت براءتها من السمـاء . . وخرج الرسول إلى المسجـد يتلو على الناس ما نزل فى زوجته من قرآن:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَّوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (12) لَّوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النور: ١١-١٩]

ولقد أقيم حد القذف على الذين روجوا تلك الإشاعة الكاذبة عملاً بالآية الشريفة:

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور: ٤]

لقد برئت عائشة . . ولكنها لم تنس لعليٍّ موقفه منها . . ومرت الأيام وانتقل الرسول الكريم إلى أكرم جوار . . وتفرغت عائشة للعبادة . . وظلت فى خلافة أبيها الصديق والفاروق عمر بن الخطاب بعيدة تماماً عن السياسة . . ولكنها أخذت تتدخل فى أمور السياسة فى الفترة الأخيرة من حكم عثمان رضى اللّه عنه . . فقد أنكرت بعض الأمور على ثالث الخلفاء الراشدين . . حتى قال لها ذات يوم عندما جاء وفد من العراق يشكو حاكمه . . وما كان أشد ما يشكون من الولاة . . اتهموه بشرب الخمر . . وقال لهم عثمان: أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالباطل.

وقالت عائشة تعقيباً على رأى الخليفة :

- إن عثمان عطل الحدود وتوعد الشهود.

فما كان من عثمان إلا أن قال لها:

- ومن أنت وهذا . . إنما أمرت أن تقرى فى بيتك.

وخرجت عائشة طلباً للعمره . . وعثمان محاصر . . وكانت الظروف تستدعى منها أن تخاطب الثوار بألا يلجأوا إلى العنف . . ولكنها أثرت أن تترك المدينة بما فيها من مشاكل . . وتترك أمير المؤمنين فى محنته تلك القاسية . . حتى إذا علمت أنه قتل . . قررت العودة . . وما كادت تسمع أن الخليفة الجديد هو علىٌّ بن أبى طالب . . حتى ثارت ثائرتها وعادت إلى مكة تحض الناس على الثورة على الإمام . . وتطالب بدم عثمان.

موقف عجيب وغريب من أم المؤمنين . . إن دل على شئ فإنما يدل على ثورة البركان القديم الذى كان فى أعماقها ضد ابن أبى طالب . . فقادت جموع الكارهين لعلىٍّ بن أبى طالب من أهل مكة . . وتبعها بنو أمية . . وطلحة والزبير اللذان ادعيا أنهما بايعا على تحت ضغط السيوف . . واتجهوا فى نحو ثلاثة آلاف مقاتل إلى البصرة.

ويروى الرواة أن مالك الأشتر أرسل لأم المؤمنين وهى فى مكة رسالة يقول فيها:

- أما بعد . . فإنك ظعينة رسول اللَّه ﷺ، وقد أمرك أن تقرى فى بيتك . . فإن فعلت فهو خير لك . . وأن أبيت الا أن تلقي جلبابك وتبدى للناس شعيراتك . . قاتلتك حتى أردك إلى بيتك والموضع الذى يرضاه لك ربك .

وردت عليه عائشة :

- أما بعد . . فإنك أول من أثار الفتنة . . ودعا إلى الفرقة . . وخالف الجماعة وسعى إلى قتل الخليفة . . وقد علمت أنك لن تعجز اللَّه حتى يصيبك منه نقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم . . وقد جاءنى كتابك وفهمك ما فيه، وسيكفيك اللّه وكل من أصبح مماثلاً لك فى ضلالك وغيك إن شاء اللَّه . .

لقد خرجت عائشة ومن معها فى طريقهم إلى البصرة . . وعندما أصبحوا عند مشارفها أرسلت عائشة برسائل إلى بعض الناس فى البصرة. وكذلك فعل طلحة والزبير . . فكتبا إلى سعد ابن سور هذه الرسالة :

- أما بعد فإنك قاضى عمر بن الخطاب وشيخ أهل البصرة . . وسيد أهل اليمن . . وقد كنت غضبت لعثمان من الأذى فأغضب له من القتل والسلام . .

وكان رد الرجل عليهما :

- أما بعد . . فإنما غضبنا لعثمان من الأذى باللسان فجاء أمر

العير فيه بالسيف فان يك عثمان قتل ظالما فمالكما وله . . وإن قتل مظلوماً فغيركما أولى به . . وان كان أمره أشكل على من شهده . . فهو على من غاب عنه أشكل.

كذلك أرسلا رسالة بهذا المعنى إلى الأحنف بن قيس فرد عليهما:

– أما بعد . . فإنه لم يأتنا من قبلكم أمر لا نشك فيه إلا قتل عثمان . . وأنتم قادمون علينا فإن يك فى العيان فضل نظرنا فيه . . وإن لا يكن فيه فضل فليس فى أيدينا ولا أيديكم كفه والسلام . .

وكان على عثمان بن حنيف عامل علىٍّ على البصرة أن يتصدى لهؤلاء الذين جاءوا من الحجاز لأخذ ثأر عثمان فى البصرة . . ويؤلبون الناس على الخليفة . . ويُحدثوا فى الإسلام هذا الشقاق الكبير . . وأن يقتل المسلم المسلم . . وأن يستحل المؤمن دم أخيه . . ولم يكن الإمام راغباً فى الحرب ولا محبذاً له . . كان شديد الإيمان بالسلام . . وكان يريد أن يتجنب الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . . ولكن الأمور سارت به نحو طريق لا يريده ولا يبتغيه.

وكان عامل عثمان على البصرة عثمان بن حنيف يريد هو الآخر أن ينهى الأمر بالحسنى . . فأرسل عمران بن حصين، وأبا الأسود الدؤلى إلى أم المؤمنين عائشة . . ليعرفا وجهة نظرها فيما جاءت

إليه، ولـيحاولا ردها دون أن تـسفك الدمـاء . . سألوها عـما أتى بها . . والهـدف من قيادتها هذا الجـيش المناوئ للخليفة . . والمثـير للفتنة؟

قالت لهما:

- إن الغوغـاء من أهل الأمصار ونـزاع أهل القبائل غـزوا حرم رسول اللَّه . . وأحـدثوا فيـه الأحداث . . وأووا فيـه المحدثين . . واستوجبوا فيـه لعنة اللَّه ولعنة رسوله من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عـذر . . فاسـتحـلوا الدم الحرام فـسـفكوه . . وأنهبـوا المال الحـرام . . وأحلوا البلد الحـرام . . والشـهـر الحـرام . . ومـزقـوا الأعراض والجلود . . وأقاموا فى دار قوم كـانوا كارهين لمقامهم . . ضارين مضرين غيـر نافعين . . ولا متقين، ولا يقدرون على إقناع ولا يأمنون . . فخـرجت فى المسلمين أعلمهم مـا أتى هؤلاء القوم ومـا فيـه الناس وراءنا وما ينبـغى لهم أن يأتوا فى إصـلاح هذا . . وقرأت: ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** (١١٤) ﴾ [النساء: ١١٤]

ننهض فى الإصلاح ممن أمر الـلَّه عز وجل، ورسول اللَّه ﷺ: الصغـير والكبـير . . الذكـر والأنثى . . فهـذا شأننا إلى مـعروف

نأمـركم به ونحضكم عـليه . . ومنكر ننهـاكم عنه ونحـثكم على تغييره.

وقابلا الرجلين طلحة والزبير وسألاهما عما أتى بهما رغم أنهما بايعا عـلياً . . فقـالا لهمـا أنهما مـا جاءا إلا من أجل الأخـذ بثأر عثمان. . وأنهما بايعا علياً بالإكراه.

ورجع الرجـلان إلى عثمـان بن حنيف . . والطريق أمـامهـما مسدوداً إنها الحرب إذن.

* * *

لم يكن أمـام عثـمـان بن حنيف إلا أن يقف أمـام هؤلاء الذين جاءوا طلبـاً لثأر عثمـان فى البصرة . . وكان بعض أهالى البـصرة يعرفون أنهم لا عـلاقة لهم بثأر عثمان . . وأن طلحة والـزبير لهما ضلع فيما آلت إليه حال المسلمين من انشقاق بين الصفوف . . وكان بعـضهم أيضـاً يرى أن أم المؤمنين ما جـاءت تحارب عليـاً . . . إلا لأحقـاد قديمة دفينة مـترسبـة فى قلب أم المؤمنين . . فمـا لها وثأر عثمان؟ . . وكـان المفروض أن تقر فى بيتها فـهى زوجة رسول اللّه ﷺ . . بل أنهم يعرفون أن علياً أقرب إلى عثمان من عائشة لأنهما أبناء عبد مناف . . وهذا واضح من الحوار الذى دار بين أبى الأسود الدؤلى مبعوث عثمان بن حنيف إليها:

فقد سألها عما جاء بها إلى البصرة. .

قالت له: أطالب بدم عثمان.

رد عليها: ليس فى البصرة من قتلة عثمان أحد.

قالت: صدقت ولكنكم مع علىٍّ بن أبى طالب فى المدينة وجئت استنهض أهل البصرة لقتاله .. أنغضب لكم من سوط عذاب ولا نغضب لعثمان من سيوفكم.

ورد عليها رداً حاسماً .. وكان من المفروض أن تعى هذا الرد المقنع.. ولكنها أصمت أذنيها .. وسارت فيما عزمت إليه .. فقد قال لها ناصحاً:

- ما أنت من السوط والسيف ... إنما أنت زوج رسول اللَّه أمرك أن تقرى فى بيتك .. وتتلى كتاب ربك .. وليس على النساء قتال.. ولا لهن الطلب بالدماء .. وأن علياً لأولى بدم عثمان منك وأمس رحماً .. فإنهما ابناء عبد مناف.

ردت عليه .. وهى مصممة على أن تأخذ الأمور مجراها مهما كانت النتائج:

- لست بمنصرفة حتى أمضى لما أقدمت عليه .. أتظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالى..

وأجابها: أما واللَّه لنقاتلن قتالاً أهونه الشديد.

لقد أعطاها عثمان بن حنيف وأعطى طلحة والزبير كل الفرص حتى يعاودا موقفهم من إراقة الدماء بلا جدوى .. ولم يكن أمامه

مفر من قتالهم حتى يأتى أمير المؤمنين علىٌّ بن أبى طالب ويحول بينهم وبين دخول البصرة . . مهما كانت الصعوبات . . وعلى الإمام أن يقرر بعد ذلك رأيه فى هذا الموقف البالغ الخطورة.

وزاد من صعوبة الموقف أن بعض أهالى البصرة لم يكونوا مؤيدين القتال. . فعائشة هى أم المؤمنين . . ولها منزلة كبيرة فى نفوس الناس . . بل أن بعضهم تعاطف معها فى موقفها.

وخطب والى عثمان فى المسجد يحث الناس على وقوفهم بجانب الخليفة وقال لهم:

- أيها الناس . . إنما بايعتم اللّٰه . . يد اللّٰه فوق أيديكم . . فمن نكث فإنما ينكث على نفسه . . ومن أوفى بما عاهد اللّٰه عليه فسيؤتيه أجراً عظيماً . . واللّٰه لو علم علىٌّ أحداً أحق بهذا الأمر منه ما قبله . . ولو بايع الناس غيره لبايع من بايع وأطاع من ولوا . . وما به إلى أحد من أصحاب رسول اللّٰه حاجة . . وما بأحد عنه غنى . . ولقد شاركهم فى محاسنهم . . وما شاركوه فى محاسنه. . ولقد بايعه هذان الرجلان وما يريدان اللّٰه . . فاستعجلا الفطام قبل الرضاع . . والرضاع قبل الولادة . . والولادة قبل الحمل . . وطلقا ثواب اللّٰه من العباد . . وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين . . فإن كانا استكرها قبل بيعتهما، وكانا رجلين من عرض قريش أولى بهما أن يقولا: ألا وإن الهدى ما كانت عليه العامة . . والعامة على بيعة علىٍّ فما ترون.؟.

وكان من رأى حكيم بن جبلة العبدى الذى أعلنه:

- نرى إن دخلا علينا قاتلناهما وإن وقفا تلقيناهما . . واللّٰه ما أبالى أن أقاتلهما وحدى وإن كنت أحب الحياة . . وما أخشى فى طريق الحق وحشة ولا غيرة ولا غشاً . . ولا سوء منقلب إلى بعث . . وإنها لدعوة قتيلها شهيد . . وحيها فائز . . والتعجيل إلى اللّٰه قبل الأجر خير من التأخير فى الدنيا وهذه ربيعة معك . .

وكان الناس منقسمين بعضهم يتعاطف مع عائشة وحزبها . . وبعضهم يتعاطف مع أمير المؤمنين.

واجتمع الناس بالمربد . .

طلحة والزبير يحدثان الناس عن دم عثمان بن عفان وعامل علىٍّ يحاول إقناع الناس بالدخول فى الطاعة . . وإذا بعائشة تخطب الناس بصوتها الجهورى . . تريد أن تشعل الثورة فى النفوس . . ونجحت بالفعل أن تضم بعض أنصار عثمان بن حنيف إلى صفوف الثائرين على الإمام . . قالت للناس:

- كان الناس يتجنون على عثمان رضى اللّٰه عنه . . ويزرون على عماله . . ويأتوننا بالمدينة فيثتشيرونا فيما يخبروننا عنهم فننظر فى ذلك . . فنجده بريئاً نقياً وفياً . . ونجدهم فجرة غدرة كذبة . . وهم يحاولون غير ما يظهرون . . فلما قودا كاثروه واقتحموا عليه داره . . واستحلوا الدم الحرام . . والشهر الحرام . . بلا ترة ولا

عذر . . ألا إن مـا ينبغى ولا ينـبغى لكم غـيره . . هو أخذ قـتلة عثمان رضى اللَّه عنه . . وإقامة كتاب اللَّه ليحكم فيهم.

وما كادت عائشـة تتم خطابها حتى استحـسنه البعض واستنكره البعض الآخر.

وقدم إليها جارية بن قدامة السعدى وقال لها:

- يا أم المؤمنين . . واللَّه لقـتل عثـمان أهون من خـروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح . . إنه قد كان لك من اللَّه ستـر وحرمة فهـتكت سترك وأبحت حـرمتك . . إنه من رأى قتـالك فإنه يرى قـتلك . . إن كنت خرجـت طائعة فارجـعى إلى منزلك . . وإن كنت أتيتنا مكرهة فاستعينى بالناس.

ووسط هذه الظروف تقدم شاب من بنى سعد إلى طلحة والزبير معاتباً إياهما أن يضعا أم المؤمنين فى هذا الموقف . . وقال لهما:

- أما أنت يا زبيـر فحـوارى رسول اللَّه . . وأما أنـت يا طلحة فوقيـت رسول اللَّه بيدك . . وأرى أم المؤمنين معكمـاً فهل جئتـماً بنسائكما؟.

فقالا : لا.

فقال لهما : فما أنا منكما فى شئ.

كان الطريق إلى الصلح فى غاية الصعـوبة، وكان القتال لابد أن يحدث لتـمسك كل طرف بما عليه مـن مواقف . . وبدأ حكيم بن

جبلـة من أصحاب عـثمـان بن حنيف بالقتـال . . ودارت معـركة ضارية . . سفـكت فيها دماء المسلـمين بيد المسلمين . . وفى الليلة التاليـة كانت شوراع المدينة تدور فـى أنحائها المعـارك بعد أن تسلل إليهـا عدد من جنـود طلحة والزبيـر . . وبدا الموقف كئـيباً حـزيناً دامياً . . واتفق كـلا الطرفين أن يرسلا رسولاً إلى المدينة ليـعرفا من أهلها إذا كـان طلحة والزبير قد بـايعا علياً أم لا . . فإن كـانا بايعا الإمام فعليهـما أن يتركا البصرة . . وإن كانا أكـرها على البيعة ظلا فى المدينة . . وذهب الرسـول إلى المدينة وسأل الناس فى المسـجد عن بيعـة طلحة والزبير . . وسكت الناس . . وقام أسـامة بن زيد فقال: اللهم إنهما لم يبايعـا إلا وهما كارهان . . فوثب عليه سهل ابن حنيف والناس وكادوا يقتلونه فـخلصه من أيديهم بعض صحابة رسول اللَّه ﷺ ، وقال له أحدهم:

- أما وسعك ما وسعنا من السكوت.

وعند ذلك رجع الرسـول إلى البصرة . . لينقل إلـى أهلها هذه الصورة التى رآها.

وكان الأمر الذى يثير العجب فعلاً موقف عثمان بن حنيف والى عثمان على البصرة . . فقد تصـرف تصرفاً عجيباً دون الرجوع إلى الإمام . . فكان عليه ألا يتصـرف إلا من خلال ما يأمره الإمام . . وليس من حقه أن يعقد هدنة بينه وبين من جاءوا يهاجمونه فى عقر داره . . ولا أن يرسل رسولاً إلى المدينة ليستطلع أمر طلحة والزبير

من المبايعة وأميـر المؤمنين لا علم له بكل هذا . . ولم يخبره به هذا العـامل . . مما جعل الأمـور تسـير فى طريـق ملئ بالضبـاب . . وعندما علم بذلك الإمام غضب وأرسل يقول له :

- واللَّه مـا أكـرها على فرقـة . . ولقـد أكـرها على جـماعـة وفضل . . فإن كانا يريدان الخلع فـلا عذر لهما . . وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظر . .

وقرأ عثمان خطاب علىٍ . . وأصبح لزامـاً عليه أن يتبع ما يشير به الإمام . . فلم يـستطع تنفيـذ ما تعـهد به مع طلحـة والزبير . . واحتج بكتاب علىٍّ . .

وانتقم منه طلحة والزبير . . عندما فاجآه مع بعض من رجالهما فى داره . . وضربـوه أربعين سوطاً . . وعـذبوه بنتف شعـر رأسه ولحيـته وحـبسـوه . . إلا أن عائشة طلبـت منهم أن يتركـوه يغادر البصـرة فاتجـه إلى المدينة . . ولم يكن أمام حكيم بـن جبلة إلا أن يقـاتل لأنه سوف يقـتل لا محـالة إذا قعد عـن القتال . . وكـانت معـركة انتهت بقتله . . وقـتل كل من اشترك من أهل البـصرة فى حصار عثمان بن عفان وقتله .

وكانت هذه المعركة الآثمـة لخمس ليال بقين من ربيع الآخر سنة ٣٦هـ .

* * *

كانت هذه الأحـداث تجرى . . وكان علىٌّ يتـوجه بجيشـه نحو البصـرة . . فقد أرغـمته هذه الأحـداث أن يغير من خطتـه بإرغام معـاوية على البيعـة وتنحيتـه من حكم الشام للخـلافة . . وآثر أن يقضى على الفتنة التى تزعمها طلحة والزبير وعائشة . . وكان علىٌّ وهو يسير لتحقـيق وحدة المسلمين واثقاً كل الثقة بنفسه . . فـبيعته سليمة . . وهو إن كـان يؤمن بأحقيته فى الخلافة مـنذ انتقال رسول اللَّه إلى الرفيق الأعلى . . إلا أنه كان حزيناً عندما آلت إليه الخلافة فى هذه الظروف العصـيبة . . ورأى ما رأى من موقف الـصحابيين طلحة والزبير وعائشة منه . . حتى ورد عنه قوله:

- لو علمت أن الأمر يبلغ هذا المبلغ ما دخلت فيه.

أى أنه كـان لا يريد أن تكون خـلافـتـه مـصـدراً لما جـرى من أحداث . . أرغمتـه أن يدخل المعارك . . وهو الذى رفض أن يبايعه أحد بالإكراه . . فقد ترك عبداللَّه بن عمر عندما رفض بيعته فحاول الثوار إجباره على البيعة فقال لهم: أتركوه فأنا حليله (كفيله).

فما بال الأمور تتعقد كل هذا التعقيد؟

ولماذا قضى عليه أن تبـدأ خلافته بسـفك الدماء؟ بدلاً من إقرار العدل فى انحاء الامبراطورية الإسلامية . . حتى يشعر الناس بعدله ورحمـته . . وحتى ينتـفع الناس بفقـهه وعلمه . . وحـتى يعيش المجتمع فى أمن ورخاء . . فقـد كان من فلسفته فى الحكم أن يوزع

على المسلمين أن يرد إلى بيت المال . . وكان من آماله أن يعيد الناس إلى الكتاب والسنة . . ولكن ما كان يريده شئ . . وما فرضته عليه الأحداث شئ آخر . . وكان يقول:

- واللَّه إني لعلى بينة من ربي ما كذبت ولا كذبت . . ولاضللت ولا ضل بي.

كان عليٌّ يتوجه إلى البصرة حتى يعيد هيبة الحكم . . ويعيد للأمة وحدتها.

وكانت آماله الكبار أن يحقق ذلك دون أن يريق نقطة من دماء . . فسوف يعرض الصلح . . وسوف يطلب من الناس الدخول في الطاعة حتى إذا لم يكن هناك مفر من القتال فسوف يقاتل على الحق حتى يرجعوا إليه.

وتظهر عظمة الرجل وفقهه عندما يسأله يوماً أحد أتباعه.

- هل يمكن أن يجتمع طلحة والزبير وعائشة على باطل؟.

فيرد بهذه الكلمات الرائعة :

- إنك لملبوس عليك . . إن الحق والباطل ليعرفان بأقدار الرجال . . اعرف الحق تعرف أهله . . واعرف الباطل تعرف أهله.

وتمضي الأيام . . ويرسل عليٌّ رسله إلى طلحة والزبير وعائشة . . يناقشهم ويناقشونه قبل أن يكون للسيف الكلمة الأخيرة . . وأرسل لهم الصحابي القعقاع بن عمرو.

إن علياً الذي طالما شهد المشاهد كلها مع الرسول العظيم وكان

من أوائل من رفعوا السيف على الباطل فى المعارك كلها . . .

وشهدته ساحات القتال فارساً لا يعرف التردد . .

شجاعاً لا يتسرب الخوف إلى قلبه . .

جسوراً لا يهاب العدو . .

تراه اليوم يؤثر السلام . .

لا لشئ إلا أنه فى المرات السابقة كان يحارب أعداء الدعوة . . ولكنه اليوم يواجه أناساً يختلفون فى الرأى السياسى . . ولكنهم مسلمون . . ربما تكون الأحقاد والقبلية القديمة تطل برأسها فتزكى حماسة الحاقدين على الإمام . . ولكنه يرى رغم ذلك أنهم على نفس العقيدة . . فكان يريد ألا يرتفع سيف فى وجه مسلم مثله . . وإن كان هو يؤثر السلامة فأعداؤه يريدون الحرب . . وإن كان هو يؤثر السلامة فأعداؤه يريدونها فتنة هوجاء . . فلم يكتف طلحة والزبير ومعهما السيدة عائشة بما فعلاه . . بل أرادوا أن تنطلق الحرب الأهلية فى كل مكان . . فها هو طلحة والزبير وعائشة بعد أن نجحوا فى السيطرة على البصرة . . وأراقوا دماء من اتهموهم بقتل عثمان بن عفان . . ها هم يرسلون إلى معاوية فى الشام بما حدث . . ويطلبونها ثورة عاتية فى كل مكان . .

لقد كتب طلحة والزبير إلى أهل الشام عن أحداث البصر فقالا :

- إنا خرجنا لوضع الحرب . . وإقامة كتاب اللّٰه عز وجل بإقامة

حدوده الشريفة فى الشريف والوضيع . . والكثير والقليل . . حتى يكون اللَّه عز وجل هو الذى يردنا عن ذلك . . فبايعنا أهل البصرة ونجباؤهم، وخالفنا شرارهم ونزاعهم فردوا بالسلاح وقالوا فيما قالوا: نأخذ أم المؤمنين رهينة . . إن أمرتهم بالحق وحثثتهم عليه . . فأعطاهم اللَّه عز وجل سنة المسلمين مرة بعد مرة . . حتى إذا لم يبق حجة ولا عذر . . استبسل قتلة أمير المؤمنين فخرجوا إلى مضاجعهم فلم يفلت منهم بخير إلا حرقوص بن زهير واللَّه تعالى مقيده إن شاء اللَّه . . إنا نناشدكم فى أنفسكم ألا نهضتم بمثل ما نهضنا . . فنلق اللَّه عز وجل وقد أعذرنا وقضينا الذى علينا.

تحريض على الثورة على الإمام فى كل مكان . . وأطماع تطل برأسها تحت ستار الحرص على الدين وإعلاء كلمة اللَّه . .

وذهب رسول عليٍّ القعقاع بن عمرو ليقابل عائشة وطلحة والزبير . . وكان الرجل حصيفاً رزيناً وعاقلاً . . حدثهم عن الدماء التى سفكت وأن حل المشكلة لا يأتى بهذه الصورة القاتمة . . من سفك للدماء . . وتفريق كلمة المسلمين . . وأن الأمر لا يأتى إلا بعد أن تستقر الأمور . . بعدها ينظر فى أمر مقتل عثمان رضى اللَّه عنه . . وأظهر طلحة والزبير وعائشة رغبتهم فى السلام أمام قوة حجة بيان هذا الصحابى الجليل إذا ما وافق على ذلك الإمام . . ورجع الرجل مسروراً بما حقق . . ولم يكن عليٌّ أقل منه سعادة . . فما الحرب بمبتغاه . . وبات الناس وظلال من الأمن تتراقص فى

مـخيـلاتهم . . مـا أكثـر الأفكار التى كـانت تتـزاحم فى رؤوس المتحاربين . . فالزبير كمـا يروى بعض الرواة قد شعر بالأحزان تملأ قلبه . . عندمـا علم أن عمار بن ياسر من أتبـاع علىٍّ . . وأنه قدم معه . . لقد دارت فى رأسه الأفكار والهواجس . . فقد سمع النبى عليه الصلاة والسلام قال له ذات يوم:

« ويحك بن سمية . . تقتلك الفئة الباغية».

وسميـة هى أم عمار بن ياسر وكانت أول شهـيد فى الإسلام. . فماذا لو قتل عمار . . ؟ إن معنى ذلك أن الفئة الباغية قتلته . . وهو فى الفئة التى تحارب ضده !.

ومهـما كـانت الظروف التى دفـعت الزبير إلى التـورط فى هذه الفتنة . . . فقد كان الرجل محباً لرسول اللَّه . . تقياً . . لا يريد أن يكون من الفـئة الباغـية . . ومن هنا كـان موقفـه من علىٍّ بن أبى طالب . . عندما انسحب من المعركة . . مـؤثراً سلامة دينه . . فقد ناداه على بن أبى طالب من بين الصـفوف ليـحادثه . . وقـد خرج الإمام بلا سلاح . . وعندما تقابل الرجـلان تعانقا . . وعاتبه الإمام وسأله:

- ما الذى أخرجك؟.

- دم عثمان .

وهنا ذكره الإمام بتلك القصة التى حدثت بينهما ذات يوم . .

فقال له:

- أما تذكر يوم لقيت رسول اللّه ﷺ فى بنى بياضة وهو راكب حماره . . فضحك إلى رسول اللّه، وضحكت أنت معه فقلت أنت يا رسول اللّه ما يدع على زهوه . .

فقال لك : « ليس به زهو . . أتحبه يا زبير؟» .

فقلت : إنى واللّه لأحبه.

فقال لك: « إنك واللّه ستقاتله وأنت له ظالم».

وتذكر الزبير هذه الحادثة فقال للإمام:

- استغفر اللّه . . لو ذكرتها ما خرجت.

وطلب منه الإمام الرجوع . . ولكن الزبير سأل الإمام كيف يرجع والجيشان على أهبة القتال . . وأى عار سوف يلحقه لو انسحب.

فقال له الإمام : يا زبير أرجع قبل أن تجمع العار والنار.

وقرر الزبير أن يترك ميدان القتال . . وانسحب عندما قامت المعركة حيث اغتيل فى وادى السباع .

واضح إذن أن الثائرين فى موقفهم هذه كانت تتفاعل فى نفوسهم مشاعر متباينة حتى أم المؤمنين عائشة هى الأخرى قد انتابتها هذه المشاعر المتباينة . . وأصابها الفزع وهى فى طريقها إلى البصرة . . فقد رأت ماء . . وسمعت الكلاب تنبح . . . . وعندما سألت عن هذا المكان . . قالوا لها . . أنه ماء الحو أب . . !.

لقد تذكرت حديث الرسول الكريم . . يوم قال النبى لنسائه فى إيثار: «ليت شعرى أيتكن التى تنبحها كلاب الحوأب!».

فالنبى لم يرض لها الخروج . . وقد أرادت العودة . . ولكنها لم تستطع لأن ابن أختها عبدالله بن الزبير زعم لها أن علياً قد أوشك باللحاق بهم . . فما كان منها إلا أن سارت عندما سمعت قدوم علىٍّ الذى تكرهه.

طلحة هو الآخر رغم أن ما يحركه كان شهوة التطلع إلى الحكم. . وحقده على الإمام الذى لم يعطه ما كان يصبو إليه من أن يكون والياً على الأقل لأحد الأقاليم . . كان هو الآخر يشعر بهذه المشاعر فى نفسه . . حتى عندما أيقن من الهزيمة يوم الجمل . . رفع يديه إلى السماء وقال:

- اللهم إن كنا قد داهنا فى أمر عثمان وظلمناه فخذ له اليوم منا حتى ترضى . .

وعلى الجانب الآخر رأينا كما روى بعض المؤرخين أن الحسن وهو فى طريقه مع والده إلى البصرة لمجابهة الثوار . . عتب على والده تسرعه فى قبول الخلافة . . وأنه نصحه بأن يخرج من المدينة عندما حوصر عثمان رضى الله عنه . . حتى لا يتهم فى أمر قتله. . وأن الناس كانوا سيضطرون لمبايعته . . ولو ترك الساحة خالية . . يومها رد الإمام على عتاب ابنه قائلاً:

- أى بنى أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان

فواللّه لقد أحيط بنا كما أحيط به . . وأما قولك لا تبايع حتى يبايع أهل الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر.

ولقد مات رسول اللّه ﷺ وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر منى . . فبايع الناس أبا بكر فبايعته . . ثم إن أبا بكر انتقل إلى رحمة اللّه . . وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر منى . . فبايع الناس عمر فبايعته . . ثم إن عمر انتقل إلى رحمة اللّه وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر منى . . فجعلنى سهماً من ستة أسهم . . فبايع الناس عثمان فبايعته . . ثم سار الناس إلى عثمان فقتلوه . . وبايعونى طائعين غير مكرهين . . فأنا مقاتل من خالفنى بمن أطاعنى حتى يحكم اللّه واللّه خير الحاكمين.

أما قولك أن أجلس فى بيتى حين خرج طلحة والزبير . . فكيف لى بما قد لزمنى أو من تريدنى أن أكون . . أتريدنى كالضبع الذى يحاط بها ويقال ليست ها هنا حتى يحمل عرقوباها حتى يخرج . . وإذا لم أنظر فيما يلزمنى من هذا الأمر ويعنينى . . فمن ينظر فيه . . فكف عنك.

هكذا كانت النفوس فى ظل هذه الظروف الحرجة التى تركت أثاراً بعيدة المدى على مدى أجيال طويلة ولا يزال.

ورغم كل مجهودات الإمام أن يستتب السلام . . وأن يعود كل إنسان إلى رشده . . وأن يتركوا له الأمر ليقتاد من قاتلى عثمان . . وهذا حقه كإمام وخليفة للمسلمين . . وأنه لا داعى

لسفك مزيد من الدماء . . إلا أن كل جهوده ذهبت أدراج الرياح . . وكأنما القـتال فرض . . فمـا أشد أحزان الإمام وأشـد أساه . . إنه يساق سوقاً إلى حـرب لا يريدها فكان لابد مما ليس منه بد . . فإذا به يخطب الناس خطبة مـؤثرة واعية خارج الكوفـة . . وقال بعض الرواة أنه كـان بالربذة . . يوضح للناس مـعـالم الصورة . . ومـا ينبغى أن يكون عليه المسلمون . . قال لهم:

- إن اللّه أعزنا بالإسلام ورفعنا به . . وجعلنا به إخواناً بعد ذلة وقلة وتباغض وتبـاعد . . فجرى الناس على ذلك مـا شاء اللّه . . الإسلام دينهم . . والحق فـيهم . . والكتـاب أمامهم حـتى أصيب هذا الرجل . . (يعنى عثـمان بن عفـان) بأيدى هؤلاء القوم الذين نزعـهم الشـيطان ليـنزغ بين هذه الأمـة . . إلا إن هذه الأمـة لابد مفترقة كما افتـرقت الأمم قبلهم فنعوذ باللّه من شر ما هو كائن إلا أنه لا بد مما هو كائن أن يكون . . إلا وأن هذه الأمة سـتفترق على ثلاث وسبعين فـرقة . . شرها فرقة تنتـحلنى ولا تعمل بعملى . . فقد أدركـتم ورأيتم فالزموا دينكم واهتدوا بهدى نبـيكم . . واتبعوا سنته . . وأعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن . . فما عرفه القرآن فـالزمـوه ومـا أنكره فـردوه . . وأرضـوا بـاللّه عـز وجل رباً . . وبالإسلام ديناً . . وبمحمد رسول اللّه ﷺ نبياً . . وبالقرآن حكماً وإماماً . .

وبينما الإمام يعـد العدة لوضع حداً لما حدث من أحـداث جسام

فى جسم الأمة الإسلامية . . كان أبو موسى الأشعرى عامله على الكوفة يخذل الناس فى الكوفة عندما سألوه عن الموقف . . وما كان من رسل علىٍّ إليه إلا أن غلظوا له القول . . وكانا رسولا علىٍّ إليه محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر . . وأرسل له الإمام ابن عمه عبدالله بن عباس ليعيده إلى الطاعة . . بينما اتجه هو إلى ذى قار . . وحاول ابن عباس أن يعيد أبا موسى الأشعرى إلى طاعة الإمام . . وألا يثبط همم الناس . . فإذا بأبى موسى يخطب الناس فيقول :

- أيها الناس . . إن أصحاب النبى ﷺ الذين صحبوه فى المواطن أعلم باللَّه عز وجل وبرسوله ﷺ ممن لم يصحبه وإن لكم علينا حقاً فأنا مؤديه إليكم . . كان الرأى ألا يستخفوا بسلطان اللَّه عز وجل ولا يجترئوا على اللَّه عز وجل . . وكان الرأى الثانى أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم . . ولا تكلفوا الدخول فى هذا . . فأما إذا كان ما كان فإنها فتنة صماء . . النائم فيها خير من اليقظان . . واليقظان فيها خير من القاعد . . والقاعد فيها خير من القائم . . والقائم فيها خير من الراكب . . فكونوا جرثومة من جراثيم العرب . . فاغمدوا السيوف . . وانسلوا الأسنة . . واقطعوا الأوتار . . وأووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر . . وتنجلى الفتنة .

وفشل ابن عباس فى إقناع أبى موسى بطاعة الإمام . . وأن يترك الناس دون أن يحرضهم عن البعد عن المشاركة فيما يجرى من أحداث جسام . . ولا يحول بين الناس ونصرة الخليفة الشرعى . . وعاد ابن عباس يقص على الإمام ما حدث فأرسل ابنه الحسن وعمار بن ياسر .

وعاتب أبا موسى عمار بن ياسر من موقفه من عثمان . . وعاتب الحسن أبا موسى الأشعرى لموقفه وسأله عن الأسباب التى جعلته يخذل الناس . . فقال أبو موسى الأشعرى يوضح وجهة نظره للحسن :

- صدقت بأبى وأمى ولكن المستشار مؤتمن . . ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول أنها ستكون فتنة . . وقد جعلنا الله عز وجل إخواناً وحرم علينا أموالنا ودماءنا . . وقال :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ... وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء : ٢٩]

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء : ٩٣]

وكانت المشكلة تتعقد إذن . . وزاد من تعقيدها رسالة جاءت من عائشة إلى الكوفة تدعوهم إلى عدم مؤازرة علىٍّ بن أبى طالب . . واختلف الناس بين مؤيد لها ومعارض لها . . وحار الناس . . وقام رجل اسمه عبد خير وسأل أبا موسى الأشعرى إن كان طلحة

والزبير قد بايعا علياً أم لا ؟ . . وكان رد أبى موسى: لا أدرى . . فما كان من الرجل إلا أن قال له:

- لا دريت ولا أتيت . . إذا كنت لا تدرى فنحن تاركوك حتى تدرى . . أخبرنى هل تعلم أحد خارجاً عن هذه القرن الأربع . . على بظهر الكوفة . . وطلحة والزبير بالبصرة . . ومعاوية بالشام. . وفرقة رابعة بالحجاز قعود لا يجئ بهم فىء . . ولا يقاتل بهم عدو . .

ورد أبو موسى قائلاً : أولئك هم الأخيار . .

ورد عليه الرجل: أسكت يا أبا موسى فقد غلب عليك غشك.

ولم يكن هناك مفر من أن يعزله الإمام من منصبه . . فكيف يكون والياً من قبل علىّ ، وهو يخذل الناس عن نصرة الخليفة!!.

موقف غريب من أبى موسى.

وقد كان لوجود الحسن فى الكوفة أثر كبير فى نفوس الناس. . فهو حفيد نبيهم عليه الصلاة والسلام، وابن فاطمة الزهراء بنت الرسول الكريم، وهو الذى طالما داعبه طفلاً مع أخيه الحسين. . وكان أقرب الناس شبها بجده العظيم . . فانطلق عدد كبير من أهل الكوفة قدره البعض باثنى عشر ألف مقاتل للانضمام لجيش الإمام. . وقال بعض المؤرخين أنهم أقل من ذلك:

وعند ذى قار التقوا بالإمام فخطبهم قائلاً:

- يا أهل الكوفة.. أنتم قاتلتم ملوك العجم.. فقضضتم جموعهم حتى صارت إليكم مواريثهم.. فمنعتم حوزتكم.. وأعنتم الناس على عدوهم.. وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة.. فإن يرجعوا فذاك الذى نريد.. وإن يلجوا داديناهم بالرفق حتى يبدأونا بظلم.. ولم ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء اللّه..

وأرسل علىٌّ رسله كما عرفنا إلى البصرة.. يدعوهم إلى السلام والتفاهم وكم كانت فرحته عظيمة عندما لاحت فى الأفق خيوط من الأمل فى نجاح القعقاع فى مهمته.. إلا أن الأمل سرعان ما ذاب عندما تراشق الناس فى الجيش بالكلمات.. وسرعان ما دب العراك بينهما.. وقال بعض المؤرخين أن ذلك يرجع إلى عبد اللّه بن سبأ.. الذين كانوا يطلقون عليه ابن السوداء.. وكان يهودياً.. وادعى الإسلام وكاد له.. وأنه وراء هذه المؤامرة التى جعلت المسلمين يتقاتلون.. وكانت معركة الجمل التاريخية..

وإن كان كثير من الرواة يرون أنه وإن كان عبداللّه بن سبأ كان له دور فى هذه الفتنة، وتصعيدها، إلا أنه لم يكن بهذا الحجم الذى جسمه البعض.. فقد كان رافدا من روافد الفتنة ولكن لم يكن من الأسباب الرئيسية فيها.

بقدر ما كان الإمام سعيداً عندما لاحت فى الأفق تباشير

السلام.. بقدر ما اعتصره الحزن عندما نشب القتال بين الجانبين..
لقد كانت المعركة ضارية.. قاسية.. خرج منها الزبير وأراد أن يعود إلى الحجاز بعد أن ذكره الإمام بحديث رسول اللَّه.. وأنه سوف يقاتله وهو ظالم له.. فخرج من ميدان القتال.

وعندما مر بوادى السباع تبعه رجل اسمه عمرو بن جرموز وقتله وهو يصلى.. وأخذ سيفه.. وجاء به إلى علىٍّ.. ويقول الرواة أن علياً عندما علم بذلك قال لعمرو:

- واللَّه ما كان ابن صفية جباناً ولا لئيماً ولكن الحين ومصارع السوء.. وتناول سيفه وهزه وقال:

سيف طالما جلى به الكرب عن وجه رسول اللَّه.

وفى هذه المعركة تتضح عظمة الإمام وإنسانيته.. فلم يبدأ هو بالقتال.. وكانت أوامره لرجاله عدم قتال مدبر.. أو الإجهاز على جريح.. وعدم سلب الأموال.. حتى قال البعض: لِمَ يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم.

لقد بدأ القتال عنيفاً.. رهيباً.. وقاسياً فى نفس الوقت.. فالمقاتلون بجانب أنهم إخوان فى العقيدة.. فإنه فى نفس الوقت وجدنا أبناء القبيلة الواحدة والدم الواحد يتقاتلون.

بعضهم مع عائشة..

وبعضهم الآخر مع علىٍّ..

وفى المعركة أصـيب طلحة بسهم . . ونقلوه إلى البـصرة حيث مات بعـد فترة قصـيرة . . وهكذا شعر جـيش عائشة بفقـد طلحة والزبيـر بالتـخاذل . . وبثـت بينهم روح الهـزيمة . . ولكنهم رأوا السيدة عائشة على هودجها . . فـاندفعوا حولها وهى تحمسهم . . وتثير فيهم النخوة فإذا بهم يقاتلون حـول جملها بضراوة عجيبة . . وكان الإمـام يقود الكتيـبة الخضـراء وهى تضم جمـاعة كبـيرة من المهاجرين والأنصار . . وكان رضى اللَّه عنه مـهيباً . . جليلاً . . . شجاعاً فتقدم بشجاعـة منقطعة النظير إلى قلب المعركة فإذا بالرجال يهربون من سيفه . . وإذا به يدخـل فى قلب جيش عائشة . . وأمر علىٌّ أن يُعقر جمل عائشة . . وانتصر جيش الإمام . . وعامل علىٌّ السيـدة عائشـة معاملة كـريمة وأدخلها أخـوها محمـد بن أبى بكر -وكان فى جـيش علىٍّ- إلى البصـرة . . وزودها الإمام بالزاد . . وقالت للناس:

- واللَّه ما كـان بينى وبين علىٍّ فى القديم إلا مـا يكون بين المرأة وبين أحمائها وإنه على معتبتى لمن الأخيار.

ورد الإمام:

- صدقت واللَّه . . وما كان بينى وبينها إلا ذاك . . وإنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة.

ويقول السيـوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء أن عـدد القتلى فى هذه

المعركـة بلغ ثلاثة عشر ألف قـتيل . . وقد كانت هذه الواقـعة يوم الخمـيس لعشر خلون من جـمادى الآخر سنة ٣٦ هجـرية . . وقد خـرجت السيـدة عائشـة من البـصرة فى غـرة رجب من سنة ٣٦ هجرية، وكـان ذلك فى أول أيام الأسبـوع . . وقد ودعهـا الإمام بنفسـه لمسافة طـويلة . . ودخل علىٌّ الكوفة بعـد ثمانية أشـهر من مقتل عـثمان . . واتخذها عاصـمة لخلافته . . وقـد ندمت السيدة عائشـة عما حدث منهـا . . وندمت على ذلك وقالت: « وددت لو أنى لم أخـرج . . وإنما قيل لى تخـرجين فـتصلحين بين الناس مـا كان».

ولقـد رجعت السـيدة عـائشة إلى مكة حـزينة . . واستـدعت عبدالله بن عـمر وقالت له: يا أبا عبدالرحـمن ما منعك أن تنهانى عن مسيرى .

قال لها: رأيت رجلاً وقد غلب عليه (الزبير).

قالت: أما أنك لو نهيتنى ما خرجت . .

وقد ندمت ندماً شديداً . . وقال الرواة . . أنها كانت تبكى بكاء شديداً كلما قرأت القرآن . . وقرأت قوله تعالى :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب : ٣٣]

وعندما حضرتها الوفاة أصابها الجزع . .

ولما سألوها عما يجزعها وهى أم المؤمنين وزوجة رسول اللّه وابنة الصديق قالت: إن يوم الجمل معترض فى حلقى.. ليتنى كنت نسياً منسياً.

وقد انتقلت إلى رحاب اللّه فى يوم ١٧ من رمضان من سنة ٥٨ هجرية.. ودفنت فى البقيع.. وكانت قد ناهزت السبعين من عمرها.

* * *

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى

فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

فلما عصوني كنت منهم وقد أرى

مكان الهدى أو أنني غير مهتد

وهل أنا إلا من غزية إن غوت

غويت وإن ترشد غزية أرشد

كان لا مفر من أن يواجه عليٌّ بن أبى طالب معاوية والى الشام الذى رفض بيعته . . رغم أن كل الظروف توحى بأن هذه المهمة بالغة المشقة والصعوبة . . وترجع صعوبتها فى أن معاوية استطاع أن يقنع أهل الشام بأن عثمان قتل مظلوماً . . وأن علياً شارك فى ذلك . . ووضع قميص عثمان المخضب بالدماء، ومعه أصابع زوجته نائلة التى أطارتها سيوف الثوار فى جامع دمشق عدة شهور ليشحن الناس عاطفياً ضد الإمام . . كما أنه فى نفس الوقت كان مسيطراً تماماً على أهل الشام بمنحه وأعطياته . . وإحكام سيطرته عليه لطول الفترة التى قضاها حاكماً على ربوع الشام . .

فقد كانت جيوش الشام بالفعل طوع بنانه . . ورهن حركة من أصبعه . . بينما كان جيش الإمام من أهل العراق تأثروا إلى حد كبير بالحضارة الفارسية . . وكثير منهم من أبناء المرتدين الذين سمح لهم عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه ليعلنوا توبتهم . . وأثبتوا ذلك بالجهاد فى سبيل اللّه . . وكان هذا اقتراحاً من المثنى بن حارثة الشيبانى الذى خاض بهم وبغيرهم المعارك الشهيرة ضد الفرس . . فكان هؤلاء يرون أنهم قاموا بنصيب كبير فى الجهاد . . وأن بهم بسط العرب نفوذهم على العراق وبلاد فارس . . وكانوا كثيروا

الجدل والـنقاش . . يريدون من الإمـام أن يشرح لهم كل تصـرف يتـصرفـه . . وما المبـرر له . . وجيـش هذا طابعه من الصـعب أن يخوض به الإمام معركة فـاصلة حاسمة . . لانه لا يوجد هناك أمر سرى . . ولـيس هناك عنصر للمـفاجـأة . . ومن هنا أيضاً كـانت صعوبة مـوقف الإمام . . وهو يواجه أعداءه بجيش يجـيد اللجاج ويسهل التأثير عليـه . . ويجادل خليفته فيما يعـرف وفيما لا يعرف من الأمور . . وما أكثر ما عانى علىٌّ من جنوده وأتباعه . .

وبينما كـان معاوية يطلب من ولاة الأقـاليم التى تضمهـا الشام وهى فلسطين والأردن وحـمص ودمشق وجـهات أرمـينيا لتـجديد بيعـته بالإمـارة . . إذا بأحدهم وهو شـرحبيل بن السـمط الكندى بحمص يقنع أهل حـمص بضرورة تعيين معاوية خلـيفة ليكون نداً لعلىٍّ . . ويرسل لمعاوية ما أثلج صدره . . عندما كتب إليه يقول:

- أما بعـد . . فإنك أخطأت خطأ عظيـما حين كـتبت إليك أن أبايعك بالإمارة وأنك تريد أن تطـلب دم عثمان الخليـفة المظلوم . . وأنت غير خليفة وقد بايعت ومن قبلى لك بالخلافة . .

وسواء أكانت هذه الرسالة التى بايع بها شرحـبيل معاوية خليفة بوحى من مـعاوية أو بوحى من شـرحبـيل فقد جـاءت على هوى معاوية . . وسـرعان ما صعـد المنبر وقرأ نص رسالة شـرحبيل . . وبايعه أهل الشام خليفة للمسلمين.

وكان عمرو بن العاص قد خرج من المدينة متجهاً إلى الشام عند

حصار عثمان، وكان عمرو ممن أثار الناس على عثمان . . فلم ينس له أنه طرده من حكم مصر وعين بدلاً منه أخاه فى الرضاعة عبداللَّه ابن أبى سرح . . وعندما علم بأن علياً قد قوى أمر المسلمين تنازعته الأنصار . . فهو يريد أن يكون له دور فى الحياة العامة . . ولا يريد أن يعيش بقية عمر بعـيداً عن ساحة الأحداث . . وهو الذى كانت له صولاته وجـولاته فى ميدان القـتال فى الشام ، وفى مـصر التى فتـحها . . وتولى حكمـها طوال حكم الفـاروق . . فهل يمكن أن يعيش بقيـة عمره فى ضيعـة له بالشام لا يؤثر فى الأحداث . . ولا تؤثر فيه الأحداث؟

وكان ابن العاص يتمنى أن يشارك فى الأحداث . . وأن يكون له دور . . وقلب عينيـه فى مجريات الأمور . . فإذا بعلىٍّ يـنتصر فى معـركة الجـمل . . ولكنه بثاقب نظره . . قـلب الأمر على جـميع وجوهه . . وتيقن أن أسـهم معاوية فى ارتفاع لأن جنده وحاشـيته ورعاياه أطوع إليه من خـاتمه فى أصبعه . . فتوجـه إلى معاوية . . ولم يعره معـاوية فى أول الأمر انتباهاً إلا أنه أراد أن يسـتغل ذكاءه وموهبته ودهاءه . . فقربه إليه.

وفر إلى الشام أيضـاً عبداللَّه بن أبى سرح خوفـاً على حياته . . وتولى أمر مصر من قـبل علىٍّ بن أبى طالب قيس بن سعد . . ولم يكن معه سوى سـبعة من الرجال . . وعندما تولى أمـر مصر جمع الناس فى المسجد وألقى عليهم كتاباً لعلىٍّ بن أبى طالب لهم.

وفى هذا الكتاب يقول الإمام:

« بسم اللّه الرحمن الرحيم . . من عبداللّه عليٍّ أمير المؤمنين إلى من بلغه كتابى هذا من المؤمنين والمسلمين . . سلام عليكم فإنى إليكم أحمد اللّه الذى لا إله إلا هو . . أما بعد . . فإن اللّه عز وجل يحسن صنعه وتقديره وتدبيره . . اختار الإسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله . . وبعث به الرسل عليهم السلام إلى عباده . . وخص به من انتخب من خلقه . . فكان مما كرم اللّه عز وجل به هذه الأمة . . وخصهم به من الفضيلة أن بعث إليهم محمداً ﷺ . . فعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة . . كلمنا بهذا وجمعهم كى لا يتفرقوا وزكاهم لكيما لا يتطهروا . . وعرفهم لكى لا يجوروا، فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه اللّه عز وجل صلوات اللّه عليه ورحمته وبركاته. ثم إن المسلمين استخلفوا أميرين صالحين عملا بالكتاب والسنة . .وأحسنا السيرة ولم يتعدوا السنة . . ثم توفاهما اللّه عز وجل . . ورضى اللّه عنهما . . ثم ولى بعدهما وال فأحدث أحداثاً فوجدت الأمة عليه مقالاً فقالوا . . ثم نقموا عليه فغيروا . . ثم جاءونى بعد ذلك فاستهدى اللّه عز وجل بالهدى . واستعينه على التقوى . . ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ والقيام عليكم بحقه . . والتنفيذ لسنته والنصح لكم بالغيب واللّه المستعان وحسبنا اللّه ونعم الوكيل.

وقد بعثت إليكم قيس بن سعد بن عبادة أميراً . . فوازروه

وكـانفـوه . . وأعينـوه على الحق . . وقد أمـرته بالإحـسـان إلى مـحـسنكـم . . والشـدة علـى مـريبكـم . . والرفق بعـوامكم وخواصكم . . وهو ممن أرضى هديه وأرجو صلاحـه ونصيحته . . أسأل اللَّه عز وجل لنا ولـكم عملاً زاكياً وثواباً جـزيلاً . . ورحمة واسعة والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته».

وطلب من الناس مبايعة الإمام فبـايعوه . . واستقرت له الأمور فى مصـر . . إلا جماعة اعـتزلت فى خربتـا . . وكان من رأيه أن يتركهم ما داموا لم يرفعوا سيفاً .

وكان مـعاوية يخشى قـيساً . . ويعـرف ما لوزن مصـر من قوة يمكنهـا أن ترجح كفة علىٍّ . . وحـاول استـمالته فلم يـستطع . . وحاول تهديـده . . وأشاع أن قيساً لا رأى له . . وأنه عـرض عليه الانضمام إليـه . . مما حد ببعض أصحاب عـلىٍّ أو يؤلبوه عليه . . حتى أفتوه بأن يعزله ويولى بدلـه محمد بن أبى بكر . . وفعل علىٌّ ذلك . . وخـرج قـيس إلى المدينـة حـيث كـانت تحت مـروان بن الحكم . . ولم يطق مروان وجوده . . . فخرج قيس إلى حيث يوجد الإمام . . وأخـبره بالحـقيـقة التى كـانت خافـية علـى الإمام . . وبخديعة معاوية التى انطلـت على بعض أصحابه . . واقتنع الإمام بما قاله قـيس . . غير أن معـاوية حزن حزناً شـديداً عندما علم أن مروان أخرجه من المدينة . فقـد كان من أحلامه أن يضم هذا الرجل إليه . . وأن يكون من أنصـاره . . وأرسل رسالة إلى مروان يعـاتبه

فيها ويقول: « أنه أمد علياً بقيس وكان أهون عليه لو مده بمائة ألف».

وقد أرسل الإمام جرير بن عبدالله إلى معاوية عله يعود إلى الطاعة ولكن معاوية بعد ان استشار عمرو بن العاص عاد وطالب كالعادة بدم عثمان . . وكان لا مفر من القتال . . فزحف عليٌ بن أبى طالب بجيشه حتى وصل إلى سهل صفين . . وزحف جيش معاوية صوب سهل صفين . . حيث عسكر كلا الخصمين.

وإذا كان عليٌ لا يريد أن تراق الدماء . . وكان يأمل أن تحقن دماء المسلمين . . وكان يرسل الرسل إلى معاوية حتى يبايع وتحقن الدماء . . ويعود المسلمون إلى وحدتهم . . لا حروب . . ولا أحقاد حتى يمكنهم أن يحافظوا على ما أسسوه من ملك عريض ويأمنوا هجمات أعدائهم من الروم . . إلا أن علياً رغم رغبته الأكيدة تلك . . فإن الرسل الذين أرسلهم لم يكونوا على مستوى عال من الذكاء السياسى . . وما كانوا على دراية كاملة كيف تساس الأمور . . وكيف يخاطبون معارضيهم . . فقد ذهبوا إلى معاوية بحماس شديد للإمام ولا عيب فى ذلك . . ولكنهم ذهبوا وحرارة الاندفاع تبعدهم عن التعقل وعن الممارسة التى يمكن أن يتوصل فيها الطرفان إلى عند تحكيم العقل . . وتقريب المسافة التى أدت إلى احتدام القتال . . بينما كان معاوية أكثر دهاء وفهما لتوظيف الأحداث لخدمة طموحاته.

إنه يحـدثهم عن دم عثـمان البـرئ . . وعن الذين انضمـوا من الذين شاركوا فى الثـورة على عثمان فى صفوف جـيشه . . ويترك قميص عـثمان وأصابع زوجته نائلة مـعلقة فى مسجد دمشق ليـثير حماس الناس . . ويستنهض هممهم . . ويخاطب عواطفهم .

فقد أرسل علىٌّ إلى معاوية ثلاثة من أنصاره لإقناع معاوية بمبايعة الإمـام والحفـاظ على دماء المسـلمين . . وكان هؤلاء الثـلاثة هم : سعـيد بن قيس الهرانى . . وبشـير بن عمـرو . . وشبث بن ربعى التميـمى . . وعندما تحدث عنهم بشـير بن عمرو إلى مـعاوية كان كلامـه الموجه إلى معـاوية فظاً . . ثقيلاً علـى السمع . . ولم يكن ليقبله رجل فى منزله مـعاوية يطمح إلى الخلافة نفسـها . . كما أن أسلوب بشيـر لم يكن يقرب وجـهات النظر . . أو حتـى يفتح باباً للحوار . . بل يسرع بقفل أى حوار . . فقد قال لمعاوية :

- يا مـعاوية الدنيـا عنك زائلة . . وإنك راجع إلى الآخـرة . . وإن اللَّه محاسبك بعملك وجازيك بما قدمت يداك . . وإنى أنشدك اللَّه ألا تفرق جماعة هذه الأمة . . وأن تسفك دماءها .

سأله معاوية : هل أوصيت صاحبك بذلك؟ .

فرد بشيـر : إن صاحبى أحق البرية كلها بهـذا الأمر فى الفضل والدين والسابقة فى الإسلام والقرابة من الرسول ﷺ .

سأله معاوية : ماذا يقول؟ .

قال: يأمرك بطاعة اللّه وإجابة ابـن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق بأنه أسلم لك فى دنياك وخير لك فى عاقبة أمرك.

قال معاوية : ونطل دم عثمان . . لا واللّه لا أفعل ذلك ابداً.

وتحدث شيث بن ربعى فقال:

– يا معاوية إنى قد فهـمت ما رددت أمة واللّه لا يخفى علينا ما تغزو وما تتـطلب إنك لم تجد شيئاً تـستغوى به الناس وتسـتميل به أهواءهم وتستـخلص به طاعتهـم إلا قولك : قتل إمـامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه فاسـتجاب لك سفهـاء طغام . . وقد علمنا أنك قـد أبطأت عنه بالنصـر . . وأحـببت له القـتل بهـذه المنزلة التى أصبـحت تطلب . . ورب متمنى أمـر وطالبه يحـول اللّه عز وجل دونه بقدرته . . وربما أوتى المتـمنى أمنيته وفوق أمنيـته . . واللّه ما لك فى واحدة منهما خير . . لئن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالاً فى ذلك . . ولئن أصـبت ما غنى لا تصـبه حتى تسـتمل من ربك صلى النار . . فاتق اللّه يا معـاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله.

وهكذا أوصد هذا الرجل الطريق إلى المناقـشة الهادئة . . وأغلق كل طريق . . ولم يجـد معـاوية مفـراً أن أمرهم بالانصـراف . . وفشل رسل علىٍّ فى تحقيق أى تقدم.

وقد أرسل علىٍّ مرة ثانية وفداً للمفاوضة . . وإعادة فتح الطريق لعدم سفك دماء المسلمين وهم شبث الربعى للمرة الثانية ومعه عدى

ابن عـامـر . . ويزيد بن قـيس . . وزيادة بن جـصفـة . . وكـان حوارهم مع معـاوية فيه نفس الجفـوة . . والأسلوب الخشن . . مما أغلق الباب أمام مثل هذه المفاوضات . .

وكذلك كانت رسل معاوية إلى عليّ بنفس الصورة التى لا تحاول الحلول بقـدر ما تذكى روح الخـلاف . . وناقـشوا الإمـام بأسلوب مجاف للذوق . . قـال له حبيب بن مسلمـة إن عثمان كـان خليفة مـهدياً يعـمل بكتـاب اللَّه عـز وجل . . وينيب إلى أمـر اللَّه . . فاستـثقلتم حياته . . واستبطـأتم وفاته فعدوتم عليه فقـتلتموه . . فادفع إليـنا قتلة عثـمان إن زعـمت إنك لم تقتله نقـتلهم به . . ثم اعتزل أمر الناس . . فيكون أمرهم شورى بينهم يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رايتهم.

وغضب الإمام من حماقة هذا الرجل وقال له:

- وما أنت لا أم لك والعزل وهذه الأمة . . اسكت فانك لست هناك ولا بأهل له . .

وتحدث الإمام . . تحدث عن سابقته فى الإسلام . . وعن صلته برسول اللَّه . . و . . لم تكن هناك أذن صاغية فقال وهو حزين:

﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الروم: ٥٢-٥٣]

ولم يكن هناك مفـر من الحرب التى بدأت فى هذا اليـوم الحزين الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ هجـرية . . كانت على شكل مناوشات بسيطة فى أول الأمر . . ثم بدأ القتال يأخذ شكلاً حاسماً . . فعلىٌّ يقود جيـوشه وسط المعمعة . . وعلى يميـنه جيش الكوفة . . وإلى الميسرة جـيش البصرة، واستطـاع عمرو بن العاص أن يجـبر جيش الكوفـة على التراجع . . وهنا ظهـرت بسالة الإمـام . . فقـد كان يحارب ببسالة منقطعة النظير كتلك التى خاضها أيام رسول اللَّه فى حروبه ضـد المشركين . . كما ظهـرت فى هذه المعركة قـدرة مالك الأشتر فى القتـال . . فقد خاض المعركة مع أربعـمائة من أصحابه بشجاعة فـائقة حتى استطاع أن يقلب ميزان المعـركة لصالح (علىٍّ) ودخل فى صفوف جيـش معاوية . . وكاد أن يقبض عليه شـخصياً ويأخذه أسـيراً . . إلا أن الجيش السورى عـاد فنظم صفوفه لتـأخذ المعركة شكل المذبحة الداميـة فى ذلك اليوم الحزين . . الشديد الحر من أيام يوليو .

وفى اليوم التالى من أيام القتال البالغ الضراوة قتل عمار بن ياسر الصحابى الجليل . . وكان قد أصبح شيخاً طاعناً فى السن . . فقد قارب التـسعين من عمـره . . وهنا تذكر الناس حـديث رسول اللَّه له . . فقد كان عمار يعمل فى بناء المسجد بالمدينة عندما هاجر النبى وأصحابه إليـها . . وقد تعب عمار من حمل الطوب فـقدم لرسول اللَّه يشكو له ذلك ويقول له :

- يا رسول اللَّه قتلونى . . يحملون على ما لا يحملون .

فقال له الرسول بعد أن نفض عن رأسه وملابسه التراب:

« ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك إنما تقتلك الفئة الباغية» .

وقد تذكر الناس حديث رسول اللّه لياسر ، ونبوءته بموته شهيداً على يد الفئة الباغية . . والفئة التى قتلته هى الفئة التى يقودها معاوية . . إذن فعلىٌ علىٌ حق . . ومن هنا فقد زاد حماس علىٍّ للقتال . . واعتقدوا أنهم هم الذين على حق . . بينما خارت قوى جنود معاوية عندما سمعوا بمقتل عمار . . ولكن عمرو بن العاص أخذ يقنعهم بأنهم لم يقتلوا عماراً . . ولكن الذى قتله هو الذى جاء به إلى ميدان المعركة . . يعنى علىٍّ بن أبى طالب . .

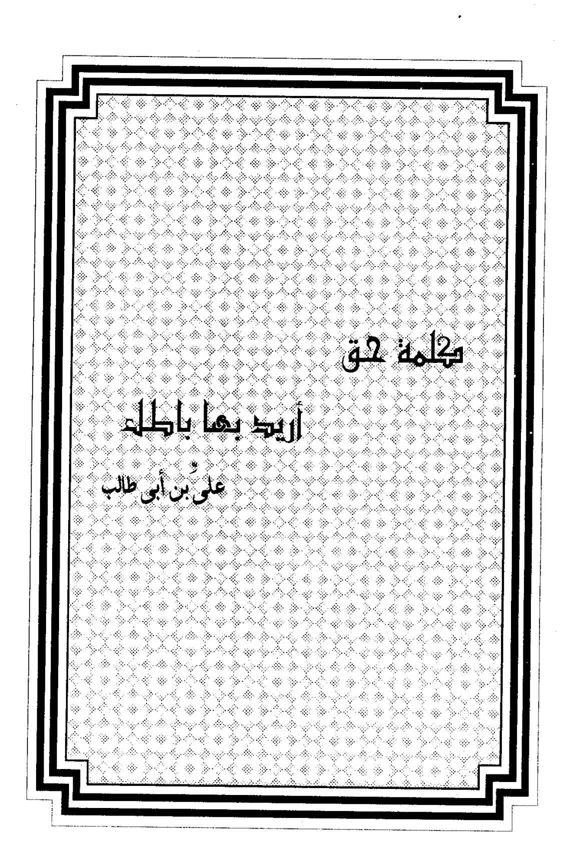
وفى اليوم التالى بدأ القتال رهيباً . . وأصبح النصر وشيكاً لجيش علىٍّ . . هنا تقدم عمرو بن العاص . . وعرض على معاوية حيلة تحول بين علىٍّ والنصر الحازم . . وهو أن يرفع أهل الشام المصاحف على أسنة الرماح . . وأن يكون الحكم هو كتاب اللّه . . وتكون هدنة يستعد بعدها معاوية لجولة جديدة . . وانطلت هذه الخديعة على جيش علىٍّ . . ولم يستمعوا إلى نصائح الإمام بمواصلة القتال لأن فى الأمر خدعة . . ولكنهم صاحوا : « الحكم للّه وحده » . . وتردد صدى هذا الهتاف من كلا الجيشين .

وراحت كلمات الإمام وسط الذين يرفعون أصواته : الحكم للّه وحده .

وأمام هذا الموقف لم يجد الإمام مفراً من قبول الأمر الواقع . .

وكما لم يسمعوا كلامه وهو يعرض عليهم مواصلة القتال ويحذرهم الخديعة لم يسمعو كلامه أيضاً عندما اقترح أهل الكوفة أن يمثلهم فى التحكيم أبا موسى الأشعرى . . وكان الإمام يراه غير جدير بتمثيله . . فقد سبق أن خذله . . وخذل الناس عن الحرب التى يقاتل فيها المسلم المسلم . . مما اضطر الإمام إلى عزله . . وها هم اليوم يصرون على أن يكون ممثلهم فى التحكيم هو هذا الإنسان الطيب القلب . . البعيد عن لعبة السياسة ودهائها . . واختار معاوية عمرو بن العاص بذكائه ودهائه ومرونته.

* * *



كلمة حق

أريد بها باطل

علىّ بن أبى طالب

خدعة التحكيم

فى معـركة صفين فـقد الإمام ثلاثة من أولاده . . وعندمـا كان النصر قاب قوسين أو أدنى . . . ظهرت خـديعة التحكيم . . وكان علىّ يعلم تماماً أن فى الأمـر خدعة . . ولكن كل نصـائحه لجنوده ذهبت أدراج الرياح . . فـإذا به يرغم حتـى على أن يكون ممثله فى التحكيم أبا موسى الأشعرى . . الرجل المسالم . . الطيب الذى لا يعرف شيئاً عن دهاء السياسـة بعكس ممثل معاوية عمرو بن العاص بذكائه ودهائـه . . وكان شيـئاً مؤلماً بـالنسبة للإمـام أن يريد شيـئاً ويجبره أصـحابه على غيره . . وهو يعـرف أن ما يريدونه ليس فى بعد نظر . .

ومعاوية نفـسه كاد أن يستـسلم فى صفين . . لولا أن ورد على خاطره قول الشاعر:

أبت لى عـفـــتى وأبى بلائى

وإقـدامى على البطل المشـيح

وإعطائى علـى المكروه مـالى

وأخذت الحمـد بالثمن الربيح

وقولى كلما جشأت وجاشت

مكانك تحميـدى أو تستريحى

وجاءت خدعـة التحكيم فأنقـذت معاوية من هزيمة محـققة . . وطوت فى قلب الإمام علىٍّ أحزاناً وأحـزاناً . . فها هو مرغم على كتابة كتاب بين الطرفين . . وكان نص الكتاب:

« بسم اللَّه الرحمن الرحيم . . هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين علىٌّ . . واعترض على ذلك عمرو بن العاص . . ووافق الإمام . . وربما نذكر فى هذه اللحظات ابن عمه العظيم محمد بن عبداللَّه فى صلح الحديبية عـندما كتب هذا ما عاهد عليه مـحمد رسول اللَّه . . فإذا برسـول مكة يقول : لو كنا نعـترف بك رسـولاً ما اقتـتلنا . . فمحا النبى كلمة رسول اللَّه . . ربما تذكـر الإمام ذلك . . فقد محا كلمة أمير المؤمنين وتابع عمرو الكتابة.

هذا ما تقاضى به علىٌّ بن أبى طالب ومعـاوية بن أبى سفيان . . قاضى على أهل الكوفـة ومن معهم . . وقاضى مـعاوية على أهل الشام ومن معهم . . أنا ننزل عند حكـم اللَّه وكتابه وألا يجمع بيننا غيره . . وأن كتاب اللَّه بيننا من فاتحته إلى خاتمته . . نحيى ما أحيا ونميت مـا أمات . . فـما وجـد الحكمان فى كـتاب اللَّه وهمـا أبو موسى الأشعرى . . وعمرو بن العـاص عملا به . . وما لم يجداه فى كتاب اللَّه فالسنة العادلة الجامعـة غير المفرقة . . وأخذ الحكمان من علىٍّ ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما والأمة لها . . أنصار علىٍّ الذى يتقاضيان عليه . . وعلى عبداللَّه بن قيس وعمرو بن العـاص عهد اللَّه وميثاقه . . وأن

يحكما بين هذه الأمة لا يردانها فى حرب ولا فرقة حتى يقضيا . . وأجلا القضاء إلى رمضان . . وأن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه . . وإن كانت قضيتهما مكان عدل من أهل الكوفة وأهل الشام».

وهذا الكتاب الذى شهد عليه عدد من جنود علىٍّ ومعاوية كان فى يوم الأربعاء لثلاث عشر بقيت من شهر صفر ٣٧ هجرية . . واتفق أن يكون اجتماع الحكمان بدومة الجندل فى رمضان.

وعاد كل جيش إلى المكان الذى جاء منه . . رجع الإمام إلى عاصمة خلافته الكوفة . . وقلبه ملئ بالأحزان . . فجيشه الذى كان يناقشه فى كل شئ . . الصغيرة والكبيرة . . وأرغمه أن ينهى الأمور إلى هذه النهاية غرم الدماء الكثيرة التى امتلاء بها سهل حنين . . وقد عادوا هذه المرة وهم أكثر تخاذلا وتفككاً عن ذى قبل . . فبعضهم تنبه أن التحكيم خدعة وإن كان على الإمام أن يوافق على ذلك . . وبعضهم الآخر رجع سعيداً بأن عاد من هذه المعركة القاسية والمريرة دون أن يفقد حياته . . والصورة أمام الإمام علىٍّ غير ما يحب . . فهناك هدنة فقط ولا أحد يدرى ما تخبئه الأيام . . كما أن الدماء التى أريقت من دماء المسلمين كانت تؤرق الإمام . . والذين لم يستريحوا للتحكيم ورفضوه ووجدوا أن الموافقة على مبدأ التحكيم كفر . . ونقض للبيعة التى بايعها الناس لعلىٍّ . . وكان هؤلاء حرباً بعد ذلك على الإمام . . فقد خرج ما يقرب من١٢ ألف منهم وكونوا لأنفسهم حكومة خاصة بهم . .

وكان على رأسهم شبث بن ربعى وكان يؤمهم فى الصلاة، وعبدالله اليشكرى.

ولكن الإمام بعد مناقشة معهم استطاع إقناعهم وعادوا إلى صفوف علىٍّ . . ثم اجتمع الحكمان بعد ذلك فى دومة الجندل فى شهر رمضان كما اتفقا عام (٣٧ هجرية) . . وأرسل علىٌّ أبا موسى الأشعرى ومعه أربعمائة رجل . . ومعهم عبدالله بن عباس وعلى رأسهم شريح بن هانى . . ولكن الخوارج سرعان ما عادوا إلى مشاغبة علىٍّ مرة أخرى . . وهم يرددون عندما يخطبهم (لا حاكم إلا الله) . . وقال علىٌّ كلمته المشهور: « كلمة حق أريد بها باطل» واعتزلوه مرة أخرى . . وخرجوا عن طاعته . . وتركهم الإمام . . وكانت سياسته معهم على حد تعبيره . . إن سكتوا تركناهم . . وإن تكلموا حاججناهم . . وإن أحدثوا فساداً قاتلناهم».

وقد اجتمع الحكمان فى دومة الجندل . . وبعد نقاش طويل اتفقا على خلع علىٍّ ومعاوية . . وأن ينتخب المسلمون خليفة جديداً . . ويبدأ الناس عصراً جديداً بعيداً عن الخلافات الدامية بين علىٍّ ومعاوية . . وأن أبا موسى الأشعرى حاول إقناعه بأن علياً أفضل منه لسابقته فى الإسلام . . وقيل أنهم رشحوا عبدالله بن عمر . . وقيل سعد بن أبى وقاص . . الذى كان اعتزل الفتنة . . على كل حال فإنهم اتفقوا على عزل علىٍّ ومعاوية وأن يكون الأمر شورى بعد ذلك بين المسلمين . . ولكن كيف ستكون عليه هذه الشورى

وكيف يختار الخليفة الجديد؟ فهذا أمر لم يحتاطا له كثيراً . . ولكنهما اتفقا على الخلع.

وفى الوقت الذى اجتمع فيه لإعلان القرار . . طلب عمرو بن العاص أن يتقدم أبو موسى الأشعرى ويعلن ما تم الاتفاق عليه . . ويقول بعض الرواة أن ابن عباس نصح أبا موسى الأشعرى أن يتكلم بعد عمرو حتى لا تفاجئهم من عمرو مفاجئة . . ولكن الرجل رفض . . وقام وأعلن بين الجميع أنه تم الاتفاق على خلع على ومعاوية . . ولكن عمرو قام وأعلن تثبيته معاوية للخلافة . . وهنا ثار أبو موسى الأشعرى لهذه الخدعة وقال لعمرو:

- لا وفقك اللّه . . غدرت وفجرت . . إنما مثلك مثل الكلب . . إن تحمل عليه يلهث . . أو تتركه يلهث.

ورد عليه عمرو:

- إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

هكذا انتهت الهدنة بين علىٍّ ومعاوية بهذه المأساة . . وهذه الخدعة الدنيئة من عمرو . . ولم يطق أبو موسى الأشعرى صبراً . . فأخذ راحلته واتجه نحو مكة . . ولقد رأى معظم أهل الكوفة أن علياً كان على حق وأخذوا يستعدون للقتال . . أما الإمام فقد استقبل هذا الأمر حزيناً . . فقد سبق أن نبه أتباعه أن أعداءه أهل هوى لا أهل دين . . ولكن لم يستمعوا له . . وها هم يرون كيف يقدرون ويفجرون . . فقد ذهب أهل الشام إلى معاوية يبشرونه . .

ويزفون إليه بشرى تثبيته خليفة للمسلمين . . علىٌّ هنا يؤاسى جراح تفرق أتباعه وجدالهم وعدم سمعهم وطاعتهم لما يمليه من سياسة . . فقد خطبهم بعد هذه الخدعة وقال لهم . . كما يروى البلاذرى :

« الحمد للَّه . . وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجلل . . وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً عبده ورسوله . . أما بعد . . فإن معصية الناصح الشقيق المجرب تورث الحسرة وتعقب الندم . ، . ولقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين وهذه الحكومة بأمرى . . ونحلت لكم رأيى . . لو يطاع لقصير أمر . . ولكنكم أبيتم إلا ما أردتم . . فكنت وأياكم كما قال أخو هوازن :

أمـرتهـم أمـرى بمنعـرج اللوى

فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

ألا إن الرجلين الذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم الكتاب وراء ظهورهما وارتأيا الرأى من قبل أنفسهما . . فأماتا ما أحيا القرآن . . وأحيا ما أمات القرآن . . ثم اختانا فى حكمهما فكلاهما لا يرشد ولا يسدد . . فبرئ اللَّه منهما ورسوله وصالح المؤمنين . . فاستعدوا للجهاد . . وتأهبوا للسير . . واصبحوا فى معسكركم يوم الاثنين إن شاء اللَّه . .

وبينما كان على يعد العدة لمقاتلة معاوية . . وإذا به يسمع عن تمرد الخوارج من جديد . . وذهابهم إلى النهروان . . وأنهم يطلبون أن يعلن لهم الإمام بأنه كفر ثم يتوب لأنه قبل التحكيم . . فإن

فعل ذلك فسوف يعودن إليه . . وإذا لم يفعل فيكون الحكم بينهم وبينه هو السيف . .

وكان أمل على أن يتركهم لحال سبيلهم طالما لم يحدثوا شغباً ولعلهم يثوبون إلى رشدهم بعد ذلك . . ولكنهم ما لبثوا أن عاثوا فى الأرض فساداً . . وقتلوا صحابياً جليلاً هو خباب بن الأرت . . وأرسل لهم رسولاً يطالبهم بأن يبعثوا بقاتل خباب . . ولكنهم قتلوا رسول علىٍّ . . وما كان علىٌّ ليتركهم وراء ظهره ينشرون الفزع بين الناس . . ويمارسون الفوضى والإرهاب . . وعندما توجه إليهم الإمام فى النهروان . . وطلب القتلة للقصاص . . قالوا له بكل الصلف أنهم جميعاً هم القتلة . . وكالعادة لم يبادرهم علىٌّ بالقتال . . فقد أخذ ينصحهم . . ويخطب فيهم ويحاول إقناعهم واستطاع بالفعل أن يقنع الكثير منهم فرجعوا إلى الكوفة أو البصرة . . وبقى حوالى ثلاثة آلاف من الخوارج يرأسهم عبداللّه بن وهب الراسبى لم يرضخوا لعلىٍّ ولا اقتنعوا برأيه، بل اندفعوا بكل قوة إلى تحدى الإمام . . ثم بدأوه بالقتال . . ولم يجد الإمام بداً من قتالهم . . واستطاع أن يقضى عليهم جميعاً . . ولكن هذه النتيجة رغم نجاح علىٍّ فى الإنتصار على أعدائه من الخوارج إلا أن النفوس قد خرجت من هذه المعركة ممتلئة بالأسى والألم والحزن . . لأن هؤلاء الخوارج من أهل البصرة والكوفة وقد قتلوا بأيدى رجال من ذوى قرباهم . . فإذا بهم يتخاذلون عن نصرة علىٍّ . . وإذا

بعليّ وهو يحاول أن ينطلق إلى الشام لا يرى حوله من الجنود ما يمكنه أن يجابه جيش الشام على شجاعته . . وكلهم رهن إشارة من معاوية . . فلم يجد الإمام بداً من العودة إلى الكوفة حتى يقضى اللّه أمره .

ومرت الأيام . . والخليفة يدعوهم إلى الجهاد فإذا بهم يصمون آذانهم ويحثهم على التوجه إلى الشام حتى تتحقق وحدة المسلمين . . وتنتهى الفرقة بين المسلمين . . دون جدوى . . وما أكثر خطبه . . ولكن هذه الخطب لم تعد تؤثر فيهم . . فقد سفكت دماء كثيرة . . وكثر بينهم الجدل . . وانعدم الحافز . . فقد ملوا الحروب . . واستهواهم القعود . .

* * *

اللهم إني سألتهم ما فيه فمنعوني ذلك

اللهم إني قد مللتهم وملوني

وأبغضتهم وأبغضوني

وحملوني على غير خلقي

وعلى أخلاق لم تكن تعرف لي فأبدلني

بهم خيرا لي منهم وأبدلهم بي شرا مني

وبث قلوبهم كبث الملح في الماء

عليٌّ بن أبي طالب

ما أكثر أحزان الإمام . .

وما أشقها على النفس تلك الظروف التى تعرض لها الإمام وهو يسـير عكس التـيار . . أو يسـبح ضد التـيار . . والموج عـال . . والريح عاصـفة . . وهو لا يستطيع أن يـجد السفيـنة التى تمخر به عبـاب هذا الموج الصاخب . . . فأصـحابه يخـذلونه . . وما يكاد يهدأ له بال عـقب انتصاره فى معـركة من المعارك حـتى يهب عليه إعصار جديد . . فبينما هو يحاول بكل ما يملك من طاقة وجهد . . وقدرة بلاغية ضخمة أن يجند الناس لمواجهة معاوية فى الشام . . إذا بالأنبـاء تأتيه بعد أن ولـى على مصر مـحمـد بن أبى بكر . . بأنه يخوض المعارك مع المرتدين فى خربتا . . وأنه فى موقف صعب . . فهم يدعـون للثأر لدم عثمـان . . وبعضهم يؤيد مـعاوية . . ولم يستطع محمد بن أبى بكر أن يسوس الناس . . فقط طالب المعتزلين فى خربتا أن يبايعوا علياً أو أن يخرجوا من مصر فرفضوا . .

وكان أن حاربهم وتصدوا له . . فقـد كانوا يرونه ضليعاً فى قتل عـثـمان . . فـهـو من الذين تسـوروا السـور على ثالث الخلفـاء الراشدين . . وأخذ بلحيته . . وقال له عثمان أن والده ما كان يفعل ما يفعله . . وخجل محـمد . . وخرج . . ولكن الثوار دخلوا . .

وقتلوا الخليفة . . وتولى محمد بن أبى بكر حكم مصر . . ولكنه فشل فى إدارة الأمور فيها، واضطر علىٌّ أن يرسل مالك بن الأشتر ليحكم مصر . . وكان مالك جسوراً . . ولكن لأمر غامض مات الرجل فى الطريق عند القلزم (السويس) . . وقيل أن سبب موته أن معاوية بعث من يبث له السم فمات . . ولكن الرجل مات على كل حال. . وكان معاوية يجد أن مصر بموقعها وثروتها يمكن أن تشكل خطراً ضخماً على ملكه . . فطلب من عمرو بن العاص الذى سبق أن فتحها ودخلها للمرة الثانية عندما حاول الروم استعادة مصر وهزمهم. . طلب منه أن يفتحها ولكن هذه المرة تحت نفوذ معاوية بن أبى سفيان. . وتوجه عمرو ومعه ستة آلاف مقاتل لغزو مصر من جديد. . وقد شعر بذلك محمد بن أبى بكر فأرسل إلى الخليفة يستنجد به وذهب علىٌّ بن أبى طالب إلى جامع الكوفة . . وخطب الناس. . وأخذ يستنفرهم للذهاب إلى مصر . . ولكنه لم يجد صدى لما يقول. . فلم يتقدم أحد للذهاب إلى مصر . . وواجه محمد بن أبى بكر جيش عمرو بن العاص فى جيش أقل عدداً وعتاداً . . وهزم وهرب. . ولكن عثر عليه وقتل ومثلوا بجثته تمثيلاً بشعاً . .

وجاءت الأنباء إلى علىٍّ . . كلها أنباء مؤلمة ومحزنة . .

تنكر له فى كل مكان! . .

هذه مصر وقد انسحب نفوذه منها . .

وهناك ثورة الخوارج فى فارس وكرمان قـضى عليها زياد بن أبيه والى علىٍّ عليـها . . وهو الذى اعتـرف بأخوته له مـعاوية بن أبى سفيان . . بعد ذلك . .

ثم سـرعـان ما جـاءت الأنبـاء أنه تحت وطأة السـيف والوعـد والوعيد دخلت مكة والمدينة واليـمن تحت سيطرة معاوية . . بل إن معاوية ابتدأ يبعث السرايا لبث الخوف فى أرجاء العراق.

كل هذا يحدث والإمام يقف أمام كل هذه الأمور الصعبة لا يجد لها حلاً . . فالناس متقاعسون عن نصرته . . حتى أنه خطبهم يوماً وفى هذه الخطبة نـرى أى حزن دفين كان يعـتمل فى أعمـاق الإمام قال للناس:

« أيها المجـتمعـة أبدانهم . . المختلفة قـلوبهم وأهواؤهم . . ما عزت دعوى من دعاكم . . ولا استراح قلب من قاساكم . . كلامكم يوهى الصم الصـلاب . . وفـعلكـم يطمع فـيكم عـدوكم . . إذا دعوتكم إلى الجهاد قلتم كيت وكيت . . وذيت وذيت . . أعاليل يا أباطيل . . وسألتمونى التأخـير . . فعل ذى البدن المطول . . حيدى حياد . . لا يدفع الضيم الذليل . . ولا يدرك الحق إلا بالجد والعزم واستشعار الصبر . . أى دار بعد داركم تمنعون؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون . . المغـرور باللّه من غررتموه . . ومن فاز بكم فـاز بالسهم الأخيب . . أصبحت لا أطمع فى نصركم . . ولا أصدق قولكم . . فرق اللّه بينى وبينكم . . أبدلنى بكم من هو خـير لى منكم . . أما

إنكم ستلقون بعـدى ذلاً شاملاً . . وسيفاً قاطعـاً . . وأثره يتخذها الظالم فيـكم سنة . . فيفـرق جمـاعتكم . . ويبكى عـيونكم . . ويدخل الفـقـر بيــوتكم . . وتتـمنون عن قليـل أنكم رأيتـمـونى فنصرتمـونى . . فستـعلمون حق مـا أقول . . ولا يبعـد اللَّه إلا من ظلم . . » .

وتبلغ أحزان الإمـام القمة . . وهو يدعـو الناس إلى نصرته ولا مجيب . . فإذا به يضع المصحف الشريف على رأسه . . ويتجه إلى اللّه بكل كيانه ويقول :

« اللهم إنى سـألتهم مـا فيـه فـمنعونى ذلك . . اللهم إنى قـد مللتهم وملونى . . وأبغضتهم وأبغـضونى . . وحملونى على غير خلقى وعلى أخـلاق لم تكن تعرف لى . . فـابدلنى بهم خيـراً لى منهم . . وأبدلهم بى شراً منى وبث قلوبهم كبث الملح فى الماء» .

ثم تتكاثر الهـموم والأحزان على الإمـام وهو يرى أقرب الناس يتهربون منه فـأخوه عقيل بن أبى طالب يذهب وينـضم إلى معاوية فى الشام . . ولكـن لعل أصعب الأمور إلى نفـس الإمام هو ذلك الخطاب الذى جاءه من أبى الأسـود الدؤلى . . الذى كان مسـئولاً على بيت المال فى البصرة . . يخـبر فيه الإمام أن ابن عمـه عبداللَّه ابن عـباس اسـتولى بغـير حق عـلى بعض مال المسلمين . . فـإذا بالإمام يفزع من هذا الأمر . . وكيف سمحت نفس ابن عباس وهو

على ما هو عليه من مكانة وفقه وتعمق فى أمور الدين. . ويقول الرواة أنه أرسل وأرسل إليه برسالة يطالبه فيها بأن يوضح موقفه ويقول له فيها:

« أما بعد . . فقد بلغنى عنك أمر إن كنت قد فعلته فقد أسخطت ربك. . وأخربت أمانتك . . وعصيت إمامك . . وخنت المسلمين . . بلغنى أنك جردت الأرض . . وأكلت ما تحت يديك. . فارفع إلى حسابك . . واعلم أن حساب اللّٰه أشد من حساب الناس».

ولكن ابن عباس أنكر ما وجه إليه من تهم . . وفى نفس الوقت لم يرفع للإمام حسابه . . ولما شدد عليه الإمام فى ذلك . . ترك البصرة واتجه إلى مكة ليعيش فيها بعيداً عن نفوذ عليٍّ . . والأعجب من ذلك كله أن يرسل خطاباً لعلى يتهمه فيه بسفك الدماء. . ولم يجد الإمام إلا أن يقول والحزن يتغلغل إلى أعماق نفسه. .

« وابن عباس لم يشاركنا فى سفك هذه الدماء. . !!».

ويقال أن ما أخذه ابن عباس من أموال المسلمين يقدر بستة ملايين درهم. . وهرب بها إلى مكة عندما رأى أن شمس السلطة تغرب من عالم الإمام . . وأن الدنيا مقبلة لمعاوية فآثر الحياة فى مكة التى أصبحت تحت سيطرة معاوية ينعم بهذا المال . . ولم يجد

الإمام المفجوع فى أقرب الناس إليه سوى أن يرسل لابن عمه خطاباً طويلاً يقول فيه:

« كأنك لم تكن تريد اللّه بجهادك . . أو كأنك لم تكن على بينة من ربك . . وكـأنما كنت تكيد أمـة محـمد عن دنيـاهم أو تطلب غرتهم عن فيـئهم . . فلما أمكنتك العزة أسـرعت العدوة وغلظت الوثبـة . . وانتهـزت الفرصـة . . واختطفت مـا قدرت عليـه من أموالهم اختطاف الذئب الأذل دامـية المعزى الهزيلة وظالعهـا الكبير فحملت أموالهم إلى الحـجاز رحيب الصدر . . تحملها غـير متأثم من أخذها . . كأنك لا أبا لغـيرك . . إنما حزت لأهلك تراثك عن أبيك وأنك سـبحان اللّه . . أفـما تؤمن بالميـعاد ولا تخـاف سوء الحساب؟ أما تعلم أنك تأكل حراماً . . وتشرب حراماً؟ أو ما يعظم عليك . . وعندك أنك تستثمن الإماء وتـنكح النساء بأموال اليتامى والأرامل والمجاهدين الذى أفاء اللّه عليهم البلاء؟ . .

فاتق اللّه وأد أمـوال القوم فإنك واللّه لا تفـعل ذلك ثم أمكننى اللّه منك لأعـذرن إلى اللّه فيك حـتى أخذ الحق وأرده . . وأقـمع الظالم . . وانصف المظلوم والسلام ».

والعجـيب حقاً أن ابن عـباس فى رده على ابن عمـه يرى أن ما أخذه هـو حقه مـن بيت المال . . ولكن ابن عمـه العظيم . . الذى كان قلبـه يملؤه الجزع والخوف على أموال المسلمين . . وكـان يقسم هذه الأموال التى ترد على بيت المال بمجرد وصـولها حتى يأخذ كل

ذى حق حـقه . . مـا كان يدور بخـلده يوماً أن ينزوى عنه أقـرب الناس إليه . . ويتركه وحده فى مواجهة تحديات هائلة . . ويلوذون هم بالفرار . . فمـا كانت أكثر أحـزان الإمام . . وهو يرى تساقط أقرب الناس إليه من حوله . . وما كان هو نفسه تهمه الدنيا بكل ما فيها من زخرف . . فما كان أكثر ما يردد:

« يا دنيا غرى غيرى».

وكان يقول أيضاً:

« آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق».

ولم يكن زهد الإمام هو أن يدير ظهـره للأيام . . على أن الدنيا لا تساوى شيئاً . . ولكنه كان زهداً قـانعاً نابعاً من العقل . . وفهم أمور الدين والدنيا، فما أكثـر ما كافح وجاهد . . وعمل . . ولكنه كان يرى أن الدنيـا مزرعة الآخـرة . . وأن العبـادة هى التاج الذين يزين رأس المؤمن، وكلـماته المـؤمنة الصـابرة الورعـة تبين حكمـة الرجل فى هذا المسجـد . . فكان يلبس أرخص الثياب وأخـشنها . وغيره يرفل فى الحرير ويأكل ما لذ وطاب من الطعام. . كان متأسياً برسول اللَّه . . يغلب الدنيا بقهـره لشهوات النفس والبدن. . وهو الذى قال:

« يرضـينى أن يقـول الناس عنى: أميـر المؤمنين . ولا أشـارك المؤمنين فى مكاره الـزمان . . واللَّه لو شـئت لكان لى صـفـو هذا

العسل . . ولباب هذا البر . . ومناعم هذه الثياب . . ولكن هيهات أن يغلبنى الهوى وحولى بطون جوعى وأكباد حيرى» .

ومن هنا فقد كانت أحزان الإمام عظيمة وهو يرى تكالب الناس على الدنيا . . وصراعهم عليها . . وهروبهم من التصدى للخارجين على السلطة الشرعية .

ووسط كل هذا الحزن كان يأمل أن يأتى إليه أشقى الناس هو ذلك الذى تنبأ له الرسول بأنه سوف يقتله . . فقد قال له رسول اللهﷺ :

« أتعلم أشقى الأولين ؟» .

قال له : عاقر ناقة صالح .

فقال له الرسول: «أتعلم من أشقى الآخرين» .

فلما لاذ بالصمت قال له الرسول:

«الذى يضربك على هذه (وأشار إلى جبهته) فتتخضب هذه بالدم(وأشار إلى لحيته)» .

ووسط ما كان يعانيه الإمام فى تلك الأيام الحزينة فى أخريات أيامه بكابوس الأحزان كان وكأنه يريد أن يترك هذه الدنيا التى تدير له ظهرها ويذهب إلى أكرم جوار . . فكان يقول: ما يؤخر أشقاها .

وتمضى الأيام بالإمام ثقيلة الخطى بطيئة الحركة .

وإذا بمؤامرة تدبر . . دبرها ثلاثة من الخوارج . . اتفقوا على أن يتخلصوا من علىٍّ ومعاوية وعمرو بن العاص . . حتى تعود الوحدة بين صفوف المسلمين . . وينتخبون خليفة آخر . . وأوكلوا إلى كل واحد منهم تنفيذ المؤامرة . . وكان عبدالرحمن بن ملجم قد كلف بقتل الإمام . . والبرك بن عبداللّه التميمى بقتل معاوية . . بينما أخذ عمرو بن بكر على عاتقه قتل عمرو بن العاص . . ووضع كل واحد منهم السم فى سيفه . . واتجه كل منهم فى طريقه فى اليوم الذى حدوه للتخلص من الثلاثة . . ولم يستطع البرك قتل معاوية فقد ضربة ضربة غير مميته . . وأراد الآخر قتل عمرو ولكن عمرو كان مريضاً فأناب عنه فى الصلاة خارجة بن حذاقة صاحب الشرطة . . فضربه الرجل بسيفه وقتله . . وعلم عمرو بن العاص بذلك فقال كلمته الشهيرة:

- أراد عمراً وأراد اللّه خارجة.

وتوجه عبدالرحمن بن ملجم نحو الكوفة . . وانتظر الإمام وهو يصلى صلاة الصبح . . وكان الإمام متعوداً عند خروجه للصلاة أن ينادى فى طرقات المدينة :

الصلاة الصلاة يا عباد اللّه .

وفى طريقه إلى المسجد كان عبدالرحمن بن ملجم يختبى فى الظلام . . فخرج إليه وطعنه بسيفه المسموم.

حدث هذا فى ليلة الجمعة الخامس عشر من رمضان وقد عاش

بعدها رضى اللّه عنه يومى السبت والأحد . . وانتقل إلى جوار اللّه فى ليلة السابع عشر من رمضان على أصح الروايات . .

وعلم الناس . . وحملوه إلى داره . . وقبضوا على القاتل . . وهنا نرى معدن هذا الرجل العظيم . . حتى فى هذه الظروف العصيبة . . فقد أمر أصحابه بالنسبة للقاتل :

- أحسنوا نزله وأكرموا مثواه . . فإن أعش فأنا أولى بدمه قصاصاً أو عفواً . . وإن أمت فالحقوه بى أخاصمه عند رب العالمين . . ولا تقتلوا بى سواه . . إن اللّه لا يحب المعتدين . . ولا تمثلوا به فإنى سمعت رسول اللّه يقول : « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » .

وقد حاول أصحابه أن يتولى الخلافة بعده الحسن بن علىٍّ . . ولكنه ترك الأمر شورى بينهم . . وعندما حاولوا أن يضغطوا عليه فى هذا الأمر . . وسألوه : ماذا يقول لربه إذا ترك الأمر بعده بلا رجل يخلفه فى مسئولياته .

قال لهم :

- أقول له تركتهم دون أن استخلف عليهم . . كما ترك رسول اللّه المسلمين دون أن يستخلف عليهم .

ودعا الحسن والحسين وأوصاهما بهذه الوصية .

- أوصيكما بتقوى اللّه . . ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما . . ولا

تبكيا على شئ أورى عنكما . . وقولا الحق . . وارحما اليتيم . . وأعينا الضائع واصنعا للأخرى . . وكونا للظالم خصيما . . وللمظلوم ناصراً . . واعملا فى كتاب اللَّه . . ولا تأخذكما فى اللَّه لومة لائم.

وكان محمد بن الحنفية بجانبه فقال له:

- هل حفظت ما أوصيت به أخويك.

- نعم . .

- فإنى أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير إخوتك وتعظيم حقهما عليك وتزين أمرهما . . ولا تقطع أمراً دونهما.

ونظر إلى الحسن والحسين وقال لهما:

- أوصيكما به فإنه شقيقكما وابن أبيكما وقد علمتما أن أباكما كان يحبه، ثم نظر إلى ابنه الأكبر الحسن بن علىٍّ وقال له:

- أوصيك أي بنى بتقوى اللَّه . . وإقام الصلاة لوقتها . . وإيتاء الزكاة عند محلها . . وحسن الوضوء . . فإنه لا صلاة إلا بطهور . . وأوصيك بغفر الذنب . . وكظم الغيظ . . وصلة الرحم والحلم عن الجاهل . . والتفقه فى الدين . . والتثبت فى الأمر . . والتعاهد للقرآن . . وحسن الجوار . . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجتناب الفواحش . .

وقد قام بغسله الحسن والحسين وعبداللَّه بن جعفر . . وكفن فى ثلاثة أثواب . . ليس فيها قميص . . وكبر عليه الحسن سبع تكبيرات.

وقـد اختلف الـرواة فى المكان الذى دفن فيـه الإمـام رضى اللَّه عنه . . فقد قـيل أنه دفن فى الكوفة . . وأخفى قبره حـتى لا ينبشه الخوارج . . وقـال آخرون أن الحسن نقله إلى المديـنة ودفنه بجانب فاطمة الزهراء زوجته . . وقـال ابن عساكر : لما قتل علىٍّ رضى اللَّه عنه حملوه ليدفنوه مع النبى عليه الصلاة والسلام . . فبينما هم فى مسيرهم ليلاً إذا ند الجمل الذى هو عليه فلم يعرف أحد أين ذهب .

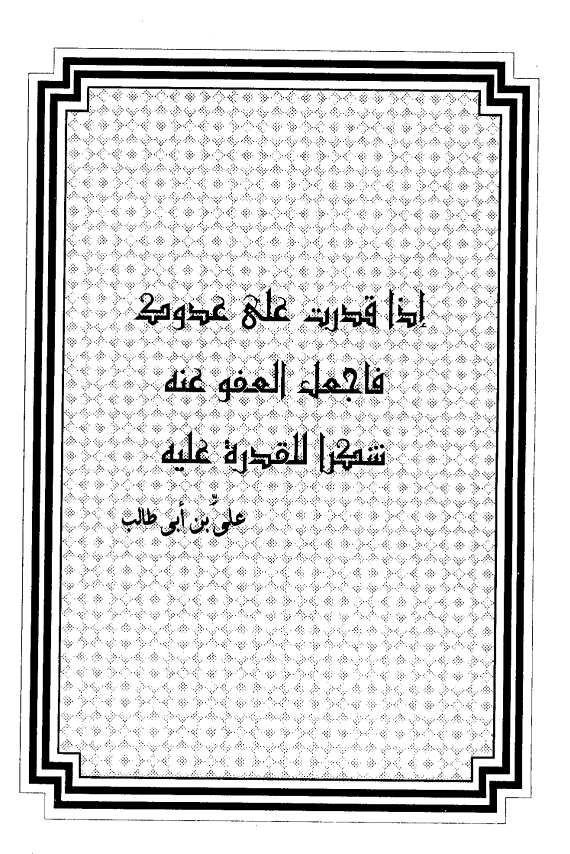
وقال الـبعض الآخر أن الـبعيـر وقع فى بلاد طئ . . فـأخذوه ودفنوه .

وقد اخـتلف الرواة أيضـاً فى سن الإمام عندمـا قتل . . فـقال البـعض ثلاث وستـون سنة . . وقيل أربع وسـتون سنة . . وقـيل خـمس وسـتـون . . وقـيل سـبع وخـمـسـون . . وقـيل ثمـان وخمسون . . كما يقول السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء . .

وقد تولى الخلافة بعده ابنه الحـسن . . وكان أول من بايعه قيس ابن سعـد بن عبـادة . . وبايعه الناس . . إلا أنه تنازل عن الخـلافة بعد ذلك لمعاوية حقناً لدماء المسلمين .

وبمقتل الإمام علىٍّ رضى اللَّه عنه . . انتـهت الخلافة الراشدة . . وآل الحكم إلى بنى أمـيـة . . ليـسيـر التـاريخ الإسـلامى فى خط جديد .

* * *


إذا قدرت على عدوك
فاجعل العفو عنه
شكرا للقدرة عليه
علىّ بن أبى طالب

مشاهد من حياة الإمام

هناك جانب لا يمكن أن نتحدث عن الإمام علىٍّ بن أبى طالب دون أن نقف عنده . . وهو جانب الحكمة . . فما أكثر الحكم التى تنسب إليه . . رضى اللّه عنه . . وما أكثر الأشعار التى تنسب إليه أيضاً . . فقد كان خطيباً بليغاً . . وكانت الحكمة تتفجر من ثنايا حديثه . . وكان أيضاً كثير الاستشهاد بأبيات من الشعر العربى الرصين . . وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أنه كان مطلعاً على عيون الشعر العربى فى زمانه . . ورجل عاش فى كنف النبى عليه الصلاة والسلام . . وتربى فى بيته . . وشاهد سلوكه وحياته . . وتزوج من ابنته الزهراء . . وشاهد مع النبى ما شاهد من الأحداث الجسام . . ورأى المواقف البالغة العظمة من نبى الإسلام . . وهو ينشر رسالة اللّه . . وهو يجابه كفار قريش بصلفهم وكبريائهم . . وهو يخوض المعارك معها ومع غيرها من قبائل العرب . . رجل شاهد كل هذا . . ويملك ذكاء خارقاً . . وفطرة سليمة وعقلية تحب الحكمة لا بد أن نجعله واحداً من حكماء العرب.

كما أنه بجانب ذلك له تجارب كثيرة خاضها منذ أن انتقل رسول اللّه إلى الرفيق الأعلى . . إلى أن انتقل هو الآخر إلى رحاب اللّه . . فقد كان يأمل أن يكون خليفة الرسول . . وله حججه فى

ذلك . . ثم عاش عـصر الصديق . . وعـصر الفاروق . . وعـصر عثمان . . بما فيها من أحداث بالغة الخطورة . . شاهد الصديق وهو يقـضي على الفتن الداخليـة ويبدأ الفـتح الإسلامى العظيم خـارج الجزيرة العـربية . . وشـاهد عصر الفـاروق عمر والإسـلام ينطلق بسـرعة البـرق إلى آفاق لم تكـن تخطر على بال أحد . . وشـاهد عصر عثمان عندما بدأ رائعـاً وعظيماً وامتداداً لأيام الشيخين . . ثم شـاهد هذا العـصر وقـد بدأت الفـتنة تطل برأسـها حـتى انتـهت باستشـهاد ثالث الخلفاء الراشدين . . وهو فى كـل هذه الفترات لم يكن بعيداً تماماً عن الساحة . . فقـد كان يستشيره الصديق . . وكان كذلك بن الخطاب الذى كان يقول : « عليٌّ أقـضانا» . . وكان يقول أيضاً: «لولا عليٌّ لهلـك عمر» . . وفى أول خلافـة عثمـان كانت العلاقة بين الرجلين وطيـدة وإن كان ابتعد عن ساحة السـياسة . . إلى أن دبت الفتنة وأطلت برأسها الكئـيب . . وإذا بعليٍّ يجد نفسه مرغماً فى دوامة الصراع الرهيب أن يدخل عالم السياسة . .

فالثوار يطلبونه أن يتدخل لحل الأزمة بينهم وبين الخليفة . .

والخليفة يستشيره حيناً . . ويقف منه مـوقفاً غاضباً حيناً آخر . . إلى أن آل إليه الحكم وسط هذه الظروف الصعبة . . وإذا بأيامه كلها التى قضاها فى الخـلافة عصيبـة للغاية . . قاسية كـأقسى ما تكون الأيام . . وهو يـحـاول أن ينشـر بين الـناس العـدل . . وروح الإسلام . . ولكن العـصر قد تغير . . وأقـبل الناس على الدنيا . .

والصراعات على السلطة بلغت ذروتها . . والصراع القديم بين بنى هاشم وبنى أمية أطل عبر رماد السنين ليعيد سيرته الأولى متمثلاً فى معاوية بن أبى سفيـان . . وطموحه للحكم . . وبجانب ذلك ظهر الخوارج بأفكارهم الجريئة . . وحـارب الرجل فى كل الجبهات . . لم يهدأ له بـال . . ولا سكن له خاطر . . كل هذه الظروف كـفيلة بأن تجعل من ابن أبى طالب من أحكم الحكماء.

حاربته أم المؤمنين عائشة ومعها طلحة والزبير . . وكانت معركة الجمل . . وما كانت أكثر أحزان الإمام وهو يرى المسلم يقتل المسلم حتى رأيناه يعـتصره الحـزن وهو يرى قتلى المسلمين . . الذين مـعه والذين ضـده . . أى رفـاهة حس تلك التى كـان يملك ناصـيـتهـا الإمام. . فـقد كان يرى هذه المناظر المؤلمـة . . ودماء المسلمين تراق فيتجه إلى اللّه قائلاً:

أشكو إليك عـجرى وبجـرى

شفيت نفسى وقـتلت معشرى

وكـانت أوامر علىٍّ لجنوده ألا يقـتلوا جـريحاً . . ولا يهـتكوا عورة. . ولا يدخلوا بيتاً . . بل إنه أمـر الناس أن يدفن موتاهم بعد أن صلى على القتلى من المعسكرين. .

وواجه الإمـام كما رأينا مـعاوية . . وكـانت معركـة صفين . . وخـدعة التـحكيم . . ومـواقف الخوارج منه . . كل ذلك كـانت تجارب هائلة للإمـام . . فكانت خطبه آية فى البلاغـة . . حتى أن

نهج البلاغة المنسـوب للإمام عليٍّ من أعظم الكتب التى تركت أثاراً كبيـرة فى مجالات الأدب والفكر العربى . . وتأثـر بها أعلام فى الأدب العربى . . من أمـثال عبدالحـميد الكاتب . . وعـبدالله بن المقـفع والشريف الرضى الذى جـمع الكثـير من خطب الإمـام فى كتابه (نهج البلاغة) . .

والغريب أننا رأينا البعض ينكر على الإمام قول الشعر . . بل إن عثـمان المازنى قال إنه لم يثـبت لعليٍّ من قول الشعـر سوى هذين البيتين :

تلكم قـريش تمنانى لتـقـتلنى

فلا وربك مـا بروا ولا ظفروا

فـإن هلكت فرهن ذمـتى لهم

بذات ودقين لا يعـــفـو له أثر

بل زأينا الشـيخ حسن العـطار أحد شـيوخ الأزهر يقـول أنه لم يثبت أن الإمام عليا قال شعراً سوى بيت واحد وهو قوله :

سبقتكم إلى الإســـلام طـــرا

صغـيراً مـا بلغت أدان حلمى

ولكن الدارس لحـيـاة الإمـام لا يرى هذا الرأى . . فكونه قـال شعراً سـواء كان بيتاً أو بيتين . . يعنى أنه كـان شاعراً . . وأن لديه السليقة لقول الشعر . . بل إنى الشعبى قال :

- كان أبو بكر شـاعراً . . وكان عمـر شاعراً . . وكان عـثمان شاعراً . . وكان عليٌ أشعر الثلاثة .

فمـا أكثر الشـعر المروى عن الإمام فـى مختلف المناسـبات . . وخاصة فى معـركة الخندق . . وفى معركة الجمـل . . وفى معركة صفين . . ومن أقواله التى رواها الرواة قوله :

أنا الذى سمتـنى أمى حيدرة   اضرب بالسيف رقاب الكفرة

كليث غابات ، غليظ القصرة   أكيلكم بالسـيف كل السندرة

وما أكثر ما نسب إلى الإمام من أشعار مثل قوله :

ولاتصحب أخـا الجهل   وإيـــــاك وإيــــــاه

يقـاس المـــرء بالمـــرء   إذا مـــا المـــرء مـاشـاه

فكم مـــن جاهـــل أردى   حليـمــــا حين آخـــاه

وللشـــئ مـــن الشـــئ   مقـــاييس وأشـبـــاه

وللقلـــب على القلـــب   دليـــل حـــين يلـقـــاه

وقولـــه :

فما أكثر الإخوان حين تعدهم

ولـكنهم فى النائبات قليـــل

وقولـــه:

رب يوم بكيـت فـيـه فلـمـا

صرت فى غـيره بكيت عـليه

ومن جوامع الكلم المنسوبة إلى الإمام على رضى اللّه عنه:

- الدين يعصم ، الدنيا تسلم.

- البخيل خازن ورثته.

- إعجاب الرجل بنفسه عنوان ضعف عقله.

- كل طالع أسير . . كل حريص فقير.

- شر ما صحب المرء الجسد.

- شر الناس من لا يرضى خيره . . ولا يؤمن من شره.

- الناس أعداء ما جهلوا.

- العلم يحرسك . . وأنت تحرس المال.

- أعمل لدنيـاك كأنك تعـيش أبداً . . وأعمل لآخـرتك كأنك تموت غداً .

- من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومن من أساء الظن به.

- المرء مخبوء تحت لسانه.

- إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه.

كان الإمام عالماً .. فقيهاً .. مثقفاً .. واعياً .. ملما بكتاب اللَّه وسنة رسوله .. وهو الذى قال:

- سلونى عن كتاب اللَّه ما شئتم .. فوالله ما من آية من آياته إلا وأنا أعلم أنزلت فى ليل أو نهار.

ولم تكن هذه الثقافة الواسعة التى يتمتع بها الإمام ثقافة نظرية.. بل كانت حياته سلوكاً عملياً لما يؤمن به من مبادئ وقيم وأخلاقيات.. فقد كان زاهداً فى الدنيا .. لا يأكل اللين من الطعام.. ولا يلبس إلا الملابس الخشنة .. أما نعله فكان من الليف.. وكان يرى أن السعادة الحقيقية ليست فى الغنى والجاه والثروة .. ولكن فى القناعة .. والزهد عما فى يد الآخرين.. وعدم الحزن على ما فات أو الفرح مما يأتى .. وكان يتمثل بالآية الشريفة: ﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٣]

وكان مثله الأعلى رسول اللَّه ﷺ .. ويروى عنه أن أحدهم دخل عليه فوجده يأكل كسرة يابسة ، ولبناً حامضاً فقال له:

- يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا؟.

فقال له: كان رسول اللَّه يأكل أيبس من هذا .. ويلبس أخشن من هذا .. فإن لم آخذ به، خفت ألا ألحق به.

ورغم أن الإمام كان فقيراً فما أكثر ما يجود بالكثير من القليل

الذى كان يحصل عليه . . وكان لا يبغى فى ذلك سوى وجه اللّٰه تعالى . . وكان يقول :

إن أظمأتك أكف اللئام

كفتك القناعة شبعاً ورياً

فكن رجلاً رجله فى الثرى

وهامة همته فى الثريا

بهذه النظرة الواعية للحياة . . وأن الإنسان يجب أن تكون سعادته فى القناعة . . وأن السعادة الحقيقة فى التقرب من اللّٰه . . والقرب من اللّٰه يفيض تقوى اللّٰه ومعرفته حق المعرفة .

وقد سئل يوماً : هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين ؟ . .

أجاب : وهل أعبد إلا ما أرى؟ .

قيل : وكيف تراه؟ . .

قال : لا تراه العيون بمشاهدة العيان . . ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان . . قريب من الأشياء غير ملامس . . بعيد منها غير بيان . . متكلم لا يرويه مريد لا بهمة . . صانع لا بجارحة .

وهذه التقوى . . وهذا الخوف الشديد من اللّٰه . . وحرصه عما عند اللّٰه لا ما عند الناس . . جعله يهتم بالقيم والمبادئ لا بالغش والمخادعة . . فقد كان من الممكن أن يستميل الناس بالمال كما يفعل

معاويـة فى الشام . . وكان من الممكن أن يتبع أسـاليب الخداع فى الحرب كـما فعل مـعه أعداؤه . . ولكنـه حتى فى أشد السـاعات عسرا . . ما لجأ إلى حيلة ولا خداع .

فإذا بنا نراه مـثلاً فى (صفين) . . وقـد وجد أن معـاوية قد منع جنود علىٍّ من الشـرب من مـاء الفـرات . . وطلب منه الإمـام أن يسمح لكلا الجيشين فى حقهم فى ماء الفرات.

وكان رد معاوية :

- لا واللَّه . . ولا شربة ماء حتى تموت ظمأ كما مات عثمان؟ .

ولم يجد الإمـام أمامه من سبـيل سوى إكراه جيش مـعاوية عن الجلاء عـن شاطئ الفـرات بالقوة . . وسـيطر هو على هذه المواقع الهامة . . وأصبح جيش معاوية بـعيداً وفى حاجة إلى الماء . . فماذا فعل الإمام؟ هل قابل إساءة معاوية بالإساءة ؟ هل منع جيش أعدائه من الإرتواء بما الفـرات ؟ هل اتخذ من هذا النصر وسـيلة لتدمـيره عدوه؟ .

لم يفعل أى شئ من هذا . . بل سمح لمن منعوه الماء أن يأخذوا منه ما يشاءون . . وعندما طلب أصحابه أن يمنعهم الماء قال لهم :

- لا أكافئهم بمثل فعلهم . . أفسحوا لهم عن بعض الشريعة .

وكـثيـراً مـا كـان يعفـو عن أعـدائه رغم مـعـرفتـه بدخـائل

نفوسهم. . وأمر أصحابه بعـدم سب معاوية وأعدائه . . فلما سألوه عن الحكمة فى ذلك . . وأن أعداءه يسبونه ويلعنونه . .

قال لهم:

– إنى أكـره أن تكونوا شتـامين لعانين . . ولكن قـولوا: اللهم احقن دماءنا ودماءهم . . وأصلح ذات بيننا وبينهم . . وأهدهم من ضلالتـهم حتى يعـرف الحق من جهله . . ويرعـوى عن الـغى من لـج به!!.

وكان يعلم أن معاوية داهية . . ولكن أى دهاء كان دهاؤه . . إن سلاحه الغـدر والخيانة . . واستخدام أى سـلاح ليصل إلى ما يريد أن يصل إليه . . الرشـوة . . والإسراف فى إغـداق المال العام على السـائرين فى ركابه . . ولكـن هل يمكن لابن أبى طالب . . الذى تربى على يد آخـر رسل اللّه أن يسـير على هذا المنهـاج . . إنه لم يكن غافلاً عمـا كان يفعله معاوية . . ولكن أخلاقـه تأبى أن يسير على هذا المنوال . . وهو القائل:

– واللّه ما مـعاوية بأدهى منـى . . ولكنه يقدر ويفـجر . . وأنا امرؤ لا أحب الغدر.

وبهـذه المثاليـة كـان يود أن يرى المجتـمع الإسـلامى . . نبعـاً طاهراً. . يعيش حكامـه كقدوة ومثـاله . . يعيشون آمال شـعوبهم وأحـزانهم . . وآلامـهم . . ومسـراتهم . . لا يشـغلهم عن أداء

مهامـهم الأساليب الملتوية . . وخدع الهـدايا . . وهل هناك ما هو أروع من تلك النصيحة التى بعث بها إلى عامله على البصرة عثمان ابن حنيف . . وقـد علم أنه ذهب إلى مائدة أحـد الأثرياء، فكتب يقول له:

- يا ابن حنيف إن رجلاً من فـتية أهل البصـرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تسـتطاب لك الألوان . . وتنثل إليك الجفان. . وما ظننت أنك تجيب إلى الطعام قـوم عائلهم مجفو وغنيـهم مدعو . . ألا وإن لكل مأموم إماماً يقـتدى به . . ويستضئ بنور علمه . . ألا وإن إمامكم قد أكتفى من دنياه بطمريه (الثواب القديم) ومن طعامه بقرصيه.

ألا وإنكم لا تـقــدرون على ذلك. . ولـكن أعــينـونى بورع واجتـهاد. . وعـفة وسـداد . . لكن هيهـات أن يغلبنى هواى . . ويقودنى جشعى إلى تخير الأطعمة. . ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له فى القـرص . . ولا عـهد له بالشـبع . . أأبيت مـبطاناً وحولى بطون غـرثى (جائعة) . . أأقنع أن يقال أمـير المؤمنين ولا أشـاركـهم فى مـكاره الدهر . . فـاتق اللّه . . يـا ابن حنيف . . ولتكفك أقراصك . . ليكون من النار خلاصك.

وما أكثر سجايا الإمام . . وما أكثر فتاويه التى تدل على رجاحة عقل . . وتعمق فى كتـاب اللّه وسنة رسوله الكريم. . وتوفيق من اللّه سبحانه.

وقد بعثه النبى عليه الصلاة والسلام لتولى القضاء فى اليمن . . فإذا به يقول للرسول الكريم:

- يا رسول اللَّه لا علم لى بالقضاء.

وطلب منه الرسول الاقتراب منه . . وضربه على صدره بيده الشريفة . . ودعا له: «اللهم أهد قلبه وثبت لسانه» . .

واستجاب اللَّه دعاء نبيه عليه الصلاة والسلام . . فإذا بعلىٍّ أفقه الناس فى أمر الدين . . وأرجحهم عقلاً . . حتى قال عنه ابن الخطاب :

- لا بقيت معضلة ليس لها أبو الحسن.

وإذا كان الإمام قد وهبه اللَّه كل هذا العلم . . وأنه كان يعمل للَّه وفى اللَّه . . لا تغره الدنيا بزخرفها وما فيها من مغريات . . ولكن كل أمله هو تقوى اللَّه ورضاه . . وكان قدوة للناس فى سلوكه وعدم تكالبه على الدنيا . . فقد رفض وهو أمير للمؤمنين أن يعيش فى قصر بالكوفة . . وعاش فى بيت عادى . . وكان يقول لأصحابه:

- إن عمر بن الخطاب كان يهرب من قصر الإمارة إلى كوخ من طين . . وكان يشترى لنفسه ما يحتاجه من السوق بنفسه . . وكان مسالماً لا يسير حرساً ليلاً أو نهاراً . . حتى أن بعض أصحابه حرصاً على حياته كانوا يسيرون بعيداً عنه وهم يقومون بالحراسة . . واكتشف هذه الحقيقة فقال للذين أرادوا الحراسة:

- أتحرسونى من أهل السماء أم من أهل الأرض؟

- من أهل الأرض.

فقال: لا شئ يقضى فى الأرض حتى يقضى فى السماء».

هذه كـانت أخلاقـياته فى زهده . . وورعـه . . وحرصـه على رضاء اللَّه . . وعفته عـما فى أيدى الناس . . فى عصر غلب عليه طابع حب الدنيـا والحـرص عليهـا . . والجرى وراء مـا فـيهـا من شهوات.

كان يريد الدين ويريدون الدنيا . .

وكان يسعى للمثل العليا وكانوا يبتغون عرض الحياة. .

وكان يرى أن أمور الحكم هى شريعة الله والعدل بين الناس. .

وكانوا يـرون أن الحكم دهاء وسيـاسة ووصول إلى الـهدف بأى طريق.

ووسط هذه الظروف الصـعبـة كان يـتمنى أن يأتى أشـقى هذه الأمة. . وكـان يدعو ربه: متى يأتـى أشقاها . . وأشـقاها هذا هو الذى تنبأ له الرسول بأنه الذى سوف يقتله.

وطعن الإمام فى فجر يوم الجمعـة الخامس عشر من رمضان عام أربعين هجرية على يد عبدالرحـمن بن ملجم. .وكأن عائشة رضى اللَّه عنها ترسم صـورة واضحة المعالـم لهذه الشخصـية التى تركت

الدنيا بعد فترة خلافة تقارب الخمس سنوات عاشها كلها فى صراع وقلق وآلام فتمثلت قول الشاعر :

وألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قر عينا بالإياب المسافر

وبموته . . انتهت الخلافة الراشدة . . وأخذ التاريخ الإسلامى مساراً آخر بعد ذلك .

* * *

سلوني عن كتاب الله ما شئتم

فوالله ما من آية من آياته إلا

وأنا أعلم أنزلت ليلا أو نهارا

علي بن أبي طالب

وبقيت كلمة

هذه دراسة عن رجل من أعظم رجالات الإسلام . . عاش حياته كلها فى جهاد مع النفس . . وجهاد مع الأعداء . . ومن يدرس حياته بعمق منذ طفولته إلى أن غادر الحياة، يراه أدى أدواراً بالغة الروعة فى مسيرة التاريخ الإسلامى . . أسلم فى طفولته . . وبات فى فراش الرسول عند هجرته . . وخاض المعارك كلها مع الرسول . . ماعدا غزوة تبوك . . حيث استخلفه الرسول فى أهله وقال له مطيباً خاطره:

«ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى».

وكانت شجاعته تفوق الخيال . . ومعاركة فى غزوات الرسول صوراً رائعة لهذه الشجاعة . . ولنقف الآن عند موقف واحد . . يوم أراد النبى فتح خيبر . . لخيانتهم للعهود والمواثيق . . وكان اليهود يظنون أن محمداً لا يستطيع محاربتهم . . ولقد عهد الرسول بالراية فى اليوم الأول لأبى بكر الصديق . . ولكن الفتح لم يتحقق . . فأعطى الراية عمر بن الخطاب . . فلم يتحقق الفتح . . وقال الرسول الكريم:

« لأعطين الراية غداً رجلاً يحب اللَّه ورسوله ويحبانه . . ويفتح عليه وليس بالفرار» .

وفى صباح اليوم التالى أعطى الراية لعلىٍّ بن أبى طالب . . الذى هاجم الحصن . . وتصدى له بطل اليهود (مرحب) وكان مدججاً بالسلاح من أعلى الرأس إلى أخمص القدم . . وقد ضرب علىٍّ بن أبى طالب ضربة قوية طوحت بالترس من يد علىٍّ بن أبى طالب . . وبسرعة تقدم علىٍّ إلى باب الحصن . . وحمله وضرب به (مرحب) ضربه شقت رأسه . . وخر بطل اليهود صريعاً مضرجاً بدمائه . . وكانت بداية الانتصار على اليهود . . وقد عجز سبعة من الصحابة بعد ذلك عن حمل هذا الباب الذى حارب به الإمام معركته مع مرحب! .

وكان من عادته أن يخرج إلى ميدان القتال حاسر الرأس . . لا يحتمى بالدروع ولا الحديد ! .

لهذا أحبه الرسول الكريم . . حتى أنه قال ذات يوم لعمه العباس:

«واللَّه يا عم للَّه أشد حباً له منى . . وأن اللَّه قد جعل ذرية كل نبى فى صلبه . . وجعل ذريتى من صلب هذا» .

إنه إنسان عاش فى بيت النبوة . . وتربى تربية دينية صافية . . وأخذ من الرسول الكريم الكثير . . أخذ عنه الجرأة . .

والشجاعة.. والفصاحة .. والمواقف الجادة .. والخوف من اللَّه.. وكيف يتعامل مع الناس بالخلق الرفيع .. حتى ورد عن الإمام قوله:

- سلونى عن كتاب اللَّه ما شئتم .. فواللَّه ما من أية من آياته إلا وأنا أعلم نزلت فى ليل أو نهار.

وكان يمشى فى الطرقات بلا حراس . ولا حجاب .. إنما يعيش بين الناس كواحد منهم .. يلبس الثياب الخشنة حتى لا يدفعه ذلك إلى الزهو أو الإعجاب بالنفس.

وكان تواقاً للخلافة عقب وفاة رسول اللَّه ﷺ، وكان يرى نفسه أحق الجميع بهذه الخلافة .. وشاءت إرادة اللَّه أن تكون خلافته عقب استشهاد ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان .. فى ظروف بالغة القسوة والصعوبة .. وجاءته الخلافة هذه المرة على غير رغبة منه .. فالظروف صعبة .. والفتنة تندلع بعنف كالنار المتأججة .. والأطماع والطموحات التى تطل برأسها .. تريد أن تغتنم الظروف لتحقق مكاسب خاصة .. والصراعات القديمة بين بنى أمية وبنى هاشم أسفرت عن وجهها فها هو معاوية يناصب الإمام العداء .. وينازعه الخلافة .. ويتخذ من دم عثمان رضى اللَّه عنه ذريعة للملك .. بجانب أن الصورة العامة للحياة قد تغيرت تماماً عن أيام الشيخين (أبو بكر وعمر) .. فقد تكدست

الثروات فى أيـدى البعض . . وبدأ التـرف يشق طريقه إلى قـصور الأثرياء فى مكة والمدينة والطائف . . وبعض عـواصم الأقاليم . . وأبناء المهـاجـرين والأنصـار يريدون أن يلعـبـوا أدواراً فى الحـيـاة السياسية . . فى الإمبراطورية الإسلامـية التى اتسعت مساحتها إلى مسـافات مـا كانت تخطر على البـال . . والناس . . أو قل بعض الناس يريدون أن يعـيشـوا حـياتهم . . فـقد كـثرت الأمـوال . . واتسعت الأعطيـات . . وأصبح لبعض الناس قصـوراً وأملاكاً فى عدد من عواصم الولايات الإسلامية.

العـصر إذن لم يكن هـو نفس عصـر الصـديق وعمـر . . هذا العصـر الذى عاش الناس فـيه فى جهـاد دائم . . جهـاد مع أعداء العقيدة . . وجهاد مع النفس . . فهم تواقون إلى اللّه . . وسيلتهم إلى ذلك تقوى اللّه والتمسك بالكتاب والسنة.

وشتان بين هذا العصر . . والعصـر الذى تولى فيه الخلافة علىٌ عقب استشـهاد عثمان بن عفـان رضى اللّه عنه . . حتى وجدنا أن (عقيل) وهو أخ للإمـام علىٍّ بن أبى طالب . . وقد يئس أن يعطيه أخوه راتبـاً مغرياً من بيت مال المسلمين . . فـيفر إلى معـاوية عدو أخيه . . وينضم إليه وكان يقول:

- إن أخى خير لى فى دينى . . ومعاوية خير لى فى دنياى! . .

وبجـانب كل هذه الظروف . . ظهر الخـوارج . . فئـة فهـمت

الإسلام فهماً خاطئا . . ورفعوا شعاراً ما فهموه . . ولا قدروه . . قـالوا إن الحكم للَّه . . والحكم للَّه يعنى تـطبيق كـتـاب اللَّه وسنة رسـول اللَّه . . ولكنهم سـفكوا الدم الحرام . . ومـارعـوا حرمـة للإسلام! . .

ومن تصرفاتهم الحمقاء ما فعلوه فى عبداللَّه بن خباب بن الأرت لقد كـانت معه زوجتـه الحامل . . وسألوه عن الخلفـاء الثلاثة . . فأثنى عليهم . .

وسألوه عن علىٍّ بن أبى طالب قـبل وبعد التحكيم فـأثنى عليه وقال لهم:

- هو واللَّه أعلم منكم . . وأشد توقياً لدينه . . وأنفذ بصيرة .

ماذا كانت نتيجة هذا القول الصريح؟ . .

ذبحوه . . وبقروا بطن زوجته!! . .

ومـــا دعـا إلى ذلك الـدين . . ولا أراده . . إنما يأباه العـــقل السليم. . ولكنه الغـباء . . والتطرف الأعمـى . . وعدم البصـيرة بحقيقة الدين . . و . . حاورهم الإمام . . وحاول أن يقنعهم بأنهم على خطأ . . ولكنهم رغـم عجـزهم عن مناقـشتـه . . وهو أبلغ البلغاء . . وأفصـح الفصحاء . . ودارس الدين من منبـعه الصافى الأصيل . . رغـم كل ذلك . . فقد أصـروا على غيـهم مما اضطره رضى اللَّه عنه إلى مـحاربتهـم والانتصار عليـهم . . ثم إذ هو فى

نهاية الأمر يذهب شهيداً بعد أن طعنه أحدهم بسيف سام وهو عبدالرحمن بن ملجم . . بينما تفشل مؤامرتهم فى مقتل معاوية فى الشام . . وعمرو بن العاص فى مصر.

ظروف بالغة القسوة والقتامة كانت تواجه الإمام . . وهو يواجه قوى مختلفة . . ويحارب فى كل الجبهات . . وكل محاولاته للسلام مع الأطراف المختلفة ذهبت أدراج الرياح . . وما أكثر أحزان الإمام . . وهو كلما يحاول أن يسد ثغرة . . تفتح له ثغرة أخرى . . وكلما قفل طريق للفتنة فتح طريق ملئ بالأشواك والهموم . ! .

والرجل وسط كل هذه الأهوال التى عاشها . . كان نبيلاً . . يتحلى بأخلاقيات الفارس النبيل . . فقد كان يكره من أعوانه أن يسبوا أعداءه . . وكان يوجههم إلى ما ينبغى أن يكون عليه السلوك النبيل . . وكان يقول لهم:

- أدعو اللّه أن يحقن دماءنا ودماءهم، ويصلح ذات بيننا وبينهم، ويهديهم من ضلالهم، حتى يعرف الحق من جهله! .

والعجيب أن بعض المؤرخين، وخاصة الغربيين كانوا يرون أن علياً كان متردداً . . وأن تردده هذا . . وحرصه على تجنب القتال هو الذى أدى به فى النهاية أن يكون فى موقف الضعف . . وأن يتفوق عليه معاوية بن أبى سفيان! .

ونسى هؤلاء المؤرخون . . أن علياً لم يكن متردداً . . فما عرف

يومـاً بالتردد . . ولكنه كـان يريد السلام . . وألا تراق الـدماء . . كمـا أن أعوانه كانوا يناقـشونه فى الصـغيرة والكبـيرة . . دون أن يكترثوا بالأسرار العسكرية التى يمكن أن تتسلل إلى أعدائه . . بينما كان على العكس تماماً جيش مـعاوية الذى كان أطوع إليه من خاتم أصبعه! .

فهو كان يحارب فى ظـروف بالغة الصعوبة . . ومن منطق النبل والشرف . . وعدم المنـاورة . . ولم يكن خصمه العنيـد معاوية بن أبى سفيان بالرجل السهل . . فقد كان داهية العرب كما يقولون. . وكان يجـيد فن السياسـة ولا تهمه الوسيلة . . وكـان بجانب ذلك رجلاً . . طويل القـامة . . أبيض اللون . . له مهـابة . . حتى أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه كان يطلق عليه كسرى العرب! .

وبجانب ذلك صـبوراً. . يمكنه تحمل الإساءة. . ولا يتـسرع فى قرار . . حـتى قال عنه أحـد الأعراب: تعـجبـون من دهاء هرقل وكسرى . . وتدعون معاوية!!.

وهل هناك صبر . . وهو صبر يفوق أى صـبر . . وقوة احتمال تفوق كل قوى الاحـتمال . . عندما نرى معـاوية وقد ذهب بعد أن أصـبح أول خليـفـة أمـوى إلى المدينة . . وهناك التـقى بعـدد من الصحابة من الأنصار وقـد استقبلوه استقـبالاً فاتراً . . ولم يقابلوه الاستقبال الذى كان ينتظره . . قال لجماعة منهم:

- تلقانى الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار .

قال أحدهم:

- لم يكن لنا دواب !.

رد معاوية:

- وأين النواضج (الإبل السريعة الخطى).

قال الرجل: « عقرناها فى طلبك وطلب أبيك يوم بدر.

ورغم فظاظة الرد .. فقد صمت معاوية .. ولكن الرجل تابع حديثه الجاف:

- إن النبى ﷺ قال لنا: «إنكم سترون بعدى أثرة (مصيبة).

وسمع معاوية للرجل وقال لهم وكأنه لم يسمع شيئاً:

- فما أمركم.

ورد الرجل:

- أمرنا أن نصبر.

وبكل بساطة .. وكظم للغيظ .. رد معاوية:

- إذن فاصبروا.

كان معاوية إذن داهية .. وكان الزمان معه..

فهو يعطى بلا حساب .. ويجازى من يقف بجواره.. ويعد الناس بالأعطيات والسلطان .. وكان الناس مقبلين على الدنيا.. يهزهم من الأعماق ذهب معاوية .. فكان الميزان بجانبه.. لأن

علياً مـا كان ليـعطى من مال المسلمين لأحـد من غيـر حق. . كان رجلاً يمثل النقـاء والصفاء والطهارة والزهد . . والبـعد عن زخرف الدنيا . . حتى أنه بدا غريباً فى مجتمع غريب . . ففى الوقت الذى كان الناس يتكالبـون فيه على الدنيا . . كانت نظرتـه للدنيا أنها دار ابتلاء . . فى كل أكلة منها غصــة . . ومع كل جرعة شرقة . . ولا ينال العـبد منها نعـمة إلا بفـراق أخرى . . ولا يسـتقبـل يوماً من عمره. . إلا بهدم آخر من أجله . . ومع ذلك فالدنيا دار صدق لمن صدقها . . ودار نجاة لمن عرفها . . ودار غنى لمن تزود منها. . ودار مـوعظة لمن اتعظ بهـا . . وهى مـهبـط وحى اللّه . . ومـسجـد أنبيائه. . ومتجـر أوليائه . . ربحوا فيها الرحمة . . واكـتسبوا منها الجنة.

وكان كثيراً ما يردد قولته الذائعة:

- آه من قلة الزاد . . وبعد السفر . . ووحشة الطريق.

هذا الرجل الزاهد فى الدنيا . . وهـو العالم الفقيـه . . القريب من قلب رسول اللّه . . يعيش فى هـذه الظروف التى فرضت عليه فرضاً . . حتى أنه لم يكن غريبـاً . . وقد عانى الإمام ما عانى من جـحـود الأقـارب والصـحـاب والأعـوان . . وهـو يحث الناس للجهاد. . وكـأنه يهز أحجاراً جامـدة متحجرة . . وتقـاعسوا عن نصرته . . لم يكن غريباً أن يقول:

- ما يؤخر أشقاها.

وأشقاها هذا هو الذى تنبأ الرسـول الكريم عليه الصلاة والسلام بمصرع الإمام على يديه فقد قال لعلىٍّ ذات يوم:

« أتعلم من أشقى الآخرين ؟».

وسكت علىٌّ . . وقـال الرسول ﷺ «الذى يضـربك على هذه (جبهته) فتخضب هذه بالدم (أشار إلى لحيته) ».

وقد رأى الإمام علىٌّ بن أبى طالب . . رسول الله ﷺ فى المنام ليلة استشـهاده . . لقد هرع إلى رسول اللّه يشكو حزنه ومـا يلاقيه من الناس . . فمسح الرسول ﷺ على رأسه وقال له: « يا علىٌّ ادع اللّه أن يريحك منهم».

ويدعو علـىٌّ . . ويستشـهد فى اليـوم التالى وينتـقل إلى أكرم جوار.

ولا أحد يعرف بالضـبط ما كان سوف يكون عليه مـسار التاريخ الإسلامى . . لو تولى علىٌّ الخلافة فى ظروف غير هذه الظروف . . ولم تكن هذه الفتنة التى اشتعل أوارها فى نهاية حكم عثمان رضى اللّه عنه . . ولو تفرغ للفتوحات الإسـلامية . . ونشر قيم الإسلام ومبـادئه . . وهو باب العلم كـما قال عنه رسـول اللّه ﷺ عندما قال:

« أنا مدينة العلم وعلىٌّ بابها».

ولا أحد يدرى ماذا ستكون عليه الحياة . . فى ظل إمام له هذه الشجاعة . . وهذا العلم . . وهذا الحلم . . وهذه التقوى . . وهو يقود مجتمعاً ييمم وجهه شطر الجهاد . . ونشر نور اللّه فى الأرض دون أن تستنفد قواه فى الحروب الأهلية أو المشاكل الداخلية . . بجانب صراع الأفكار التى ضلت طريقها عن فهم روح الإسلام . . بأصالته . . وتسامحه وتوافقه مع الفطرة السليمة . . وبعده عن العنف . . لايدرى أحد . . أى مجتمع كان سوف يكون عليه هذا المجتمع المعطر بأريج النبوة .

ولو كان فى عصر . . ليست فيه كل ما شاهدنا من عوامل . . عطلت الفتوحات . . وفرقت كلمة المسلمين وأضعفتهم . . بل وأنهكت قواهم . . واللّه وحده أعلم ما كانت ستكون عليه الأمة الإسلامية الصاعدة من تطور كبير . . فقد كان على حد تعبير ضـــرار له :

- كان بعيد المدى . . شديد القوى . . يقول فضلاً . . ويحكم عدلاً . . يتفجر العلم من جوانبه . . وتنطلق الحكمة من لسانه . . يستوحش من الدنيا وزهرتها . . ويأنس بالليل ووحشته . . وكان غزيرة العبرة . . طويل الفكرة . . يعجبه من اللباس ما قصر . . ومن الطعام ما خشن . . وكنا واللّه مع قربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته . . يعظم أهل الدين . . ويقرب المساكين . . لا يطمع القوى

فى باطله . . ولا ييأس الضعيف من عدله . . وأشهد لقد رأيته وقد أرخى الليل سدوله . . وغارت نجـومه . . قابضاً على لحـيته يبكى ويقول: « يا دنيا غرى غيرى».

وتمضى قافلة الأيام . .

ويتولى الخلافـة معاوية بن أبى سفيـان بعد تنازل الحسن بن علىٍّ له عن الخلافة . . ويحـول بنو أمية الخلافـة إلى ملك عضوض . . وفى ظل الدولة الأمـوية انتشـر الإسلام شـرقاً وغـرباً . . وبلغت الفتوحات قمة الانتصارات . . وتحولت هذه الرقعة الهائلة التى تمتد من الصين شرقـاً إلى المغرب غرباً تحت راية الإسلام . . بل عـبرت جيوش الإسلام إلى قلب أوربا عن طريق مـضيق جبل طارق لتضم الأندلس تحت حكم الإسلام . . أمجاد بالغة الروعة . . وانتصارات بالغـة الروعـة . . وانتصـارات بالغـة التـفوق . . ومع ذلك فـإن خلافات بنى أمـية وحقدهم على بنى هاشم لـم تنته . . ومن فوق أعواد المنابر كان الخطباء -بأمر خلفاء بنى أمية- يلعنون علىٍّ بن أبى طالب.

حقد أسود صنعته السياسة ومداهنة الحكام . . وظل الحال كذلك إلى أن أبطل هذه العـادة السخيـفة الخليـفة الزاهد العظيم عـمر بن عـبـدالعزيـز . . والذى كان يمـثل قسـمـة الوجـه المشـرق للدولة الأموية. . و . . ومـا أكثر الصـراعات الفكرية والمذهبـية . . التى

دارت بعد ذلك . . حتى سقطت الـدولة الأموية . . وتولى الخلافة بنو العبـاس . . الذين ينتسبـون إلى العباس عم النبى عليـه الصلاة والسلام . . ثم احـتد الصراع بين التشـيع لعلىٍّ وضد علىٍّ . . على اختلاف الأجيال . .

وبعيداً عن دوامات الصراعات الفكرية والمذهبية التى ظهرت . . ستظل صورة علىٍّ بن أبى طالب . . نفسه . . صـورة مشرقة بالغة الشفـافيـة . . لإنسان عاش فـى بيت النبوة . . وتربى فى مـدرسة الرسـول . . وكان من أعظم فـقهـاء وفرسان الإسـلام . . وذهب شهيداً . . وبقيت أفكاره وأراؤه . . وقصة حياته مثلاً أعلى لإنسان عاش للَّه . . وباللَّه . . وسوف تتردد دائماً كلمة النبى عليه الصلاة والسلام عبر كل العصور عنه :

« من كنت مـولاه فعلى مولاه، اللهـم وال من ولاه، وعاد من عاداه» .

رحمه اللَّه . .

* * *

المراجع

* الإمامة والسياسة — ابن قتيبة
* فتوح البلدان — البلاذرى
* الأمم والملوك — الطبرى
* الأغانى — للأصفهانى
* معجم البلدان — ياقوت الحموى
* صحيح البخارى — البخارى
* شرح نهج البلاغة — ابن أبى الحديد
* العقد الفريد — ابن عبد ربه
* الكامل — المبرد
* إتمام الوفاء فى سير الأنبياء — محمد الخضرى
* الخلفاء الراشدون — عبدالوهاب النجار
* عبقرية الإمام — العقاد
* على وبنوه — د . طه حسين
* فى رحاب اللّه — خالد محمد خالد
* علىٍّ بن أبى طالب — عبدالفتاح عبدالمقصود
* فجر الإسلام — أحمد أمين

* علي بن أبي طالب (شعره وحكمه) أحمد تيمور
* الفتوحات العربية الكبرى جلوب ترجمة خيرى حماد
* الحرب الأهلية فى صدر الإسلام عمرو أبو النصر
بين الإمام عليٍّ وخصومه
* من أخلاق الخلفاء الراشدين حسين فؤاد طلبة

الفهرست

رقم الإيداع
٩٧/١٥٠٦٥
I.S.B.N.
977 - 294 - 045 - 0

طـــبع آمـــــون
٤ عطفة فيروز - متفرع من ش إسماعيل أباظة - لاظوغلى
تليفون: ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦